

عبد الرحمن الشقار



عبد الرحمن الشقاوي



مطبعة الاعتماد مصر

الفؤاد

إلى وطني . . .

[أرض المعركة ، والمأساة ، والأمل !]

عبد الرحمن الشرفاوي

مطبعة الاعراب بمصر ١٩٥٤

مقدمة

نحن في معركة من أجل الحرية . . .

ومعارك الحرية تعتمد أولاً وقبل كل شيء على الشعوب . . . فالشعب دائماً هو صاحب المصلحة الأولى في الدفاع عن حريته . . .

ولعل هذه الحقيقة البسيطة لم تجد طريقها بعد إلى نفوس بعض الذين يريدون أن تكون لهم كلمة نافذة في هذا البلد . . . فتراهم يحقرون من تاريخ هذا الشعب ويمزأون بمقدراته ويلوون الحقائق لياً عنيفاً ليلتهوا إلى أن شعبنا شعب « وادع » .

وهم يريدون « بالوداعة » هنا الاستكانة والخنوع والصبر على الاذلال والمهانة . . .

ولعل بعض هؤلاء قد حدد موقفه نهائياً ضد مصلحة الشعب فهو يريد أن يفرض آراءه ومن ورائها مصالحه بغير طريق الشعب طبعاً . . .

ولعل بعضهم قد أعجزه القصور عن أن يصل إلى ما كان ينبغي من ثقة المجموع . . . فشن الحرب على هذا المجموع وراح يتهمه في حاضر وماضيه . . . ويحاول أن يرسم له مستقبل على الجو الذي يجب . . .

ومع ذلك فإن هذا الكتاب لم يصدر هؤلاء « العباقرة المختارين » بل يصدر لهذه « المجموع » - لي ولك ولأصدقائنا جميعاً - فنارتنا من حقنا نحن . . .

وعند ما نعرف نحن تاريخنا.. نستطيع أن نلقى منه أضواء على مستقبلنا
فتمحدد الهدف الذى نريد ونعرف الطريق الواضح الذى يؤدى إلى
هذا الهدف ..

أما عن الكتاب نفسه فهو كما نرى من عنوانه « قصص من كفاحنا
الشعبى » .. ولن أذكر لك — كما هى العادة فى أمثال هذه المقدمات —
أن هذا الكتاب فتح جديد فى عالم الكتابة وأنه لا شك سيحدث دويماً
فى الأوساط الأدبية إلى آخر هذه العبارات الجوفاء التى تسمع مثلها على
أبواب محال « الصاغة » و « بين الصورين » ..

فالحكم على هذا الكتاب ليس من شأنى .. بل هو من شأنك أنت
وحبك .. وأنت حر فى أن تصدر ما تراه من أحكام ..
ولكننى سأقول لك كلمة عن بعض ما جاء فى هذا الكتاب ..

* * *

فقد تعرض المؤلف لفترة من تاريخنا .. هى الفترة التى سبقت دخول
الحلة الفرنسية إلى مصر وامتدت حتى وصلت إلى بداية الاحتلال البريطانى
وبالرغم من أن قصة الكفاح الشعبى لم تبدأ فى هذه الفترة ولم تنته
عندها كذلك ... إلا أن هذه السنوات بالذات كانت غنية حقاً غنية حقاً
بألوان الكفاح الشعبى فى صوره المختلفة ..

فكان هناك الكفاح الشعبى ضد المستعبر ..
وكان هناك الكفاح الشعبى ضد الحاكم المستبد ..
وكان هناك الكفاح فى سبيل لقمة العيش ..

ذلك أن فى الفترة التى سبقت دخول الحلة الفرنسية إلى مصر كان الذى
يحكم مصر فعلاً جماعات المماليك .. صحيح أن الخليفة العثمانى هو الذى

كان له حق السيادة الرسمية على مصر . ولكن كان هذا الحق لا يتعدى الحدود الشكلية وحدها .

وبالرغم من أن المالك لم يكونوا مصريين في أصولهم إلا أن حركات المقاومة الشعبية ضدهم لم تأخذ شكل حركات المقاومة ضد المستعمرين . فان طول إقامة المالك في مصر وما اكتسبوه من عادات أهلها وأخلاقهم ولغتهم جعلهم أقرب إلى المصريين منهم إلى أى شيء آخر . والشئ المهم أنهم لم يكونوا على الإطلاق يعملون لمصلحة دولة أجنبية . فإنهم لم يعرفوا غير مصالحهم الخاصة . فكان وضعهم بالنسبة لجمهير الشعب في مصر وضع الطبقة الحاكمة المستقلة لا أكثر ولا أقل . وعلى هذا فإن ما قام ضدهم من حركات شعبية كان يتسم بطابع الحركات التحريرية الداخلية . أى أن هدفها الأول كان وقف الطغيان المحلي .

ذلك أن النظام الاقتصادي الذي فرضه السلطان سليم عند مبدأ الفتح العثماني لمصر هو أن يكون السلطان نفسه هو المالك الوحيد لكل الأراضي المصرية . وليس لصاحب الأرض غير حق الانتفاع بها أما ملكية الرقبة أى حق التصرف في هذه الأرض فهو للسلطان أى للحكومة . غير أن مزاعم السلاطين في تملكهم رقبة الأرض ما لبثت أن تلاشت مع الزمن أمام نفوذ المالك فكانوا يتصرفون في الأراضي على نحو ما يشاءون ويسيطون أيديهم على ما يروق لهم منها حتى صارت معظم أراضي مصر مقسمة بينهم . وآلت إليهم بهذه الطريقة ملكية ثلثي ما يزرع من الأراضي . أما الباقي فوزع بين الملتزمين والأوقاف .

ولم يكن للصناعة شأن يذكر في ذلك الحين . أما التجارة فكانت تحتل مركزا لا بأس به في الحياة الاقتصادية المصرية نظرا لما يتمتع به مركز مصر الجغرافي من مزايا تجارية عديدة وهذا ما جعل للتجار المصريين أهمية اجتماعية

في هذه الفترة من تاريخ مصر استطاعوا من خلالها أن يتزعموا أو يوجهوا الحركات الشعبية التي كانت تنتفض بين الحين والحين توقف استبداد المماليك الذين يملكون معظم الثروة المصرية — فقد كانت للتجار مصلحة في وقف هذا الاستبداد الذي كان يؤدي دائماً إلى عرقة نشاطهم التجاري .

وقد وجدت الحركات الشعبية في ذلك الحين من جماعة العلماء خليفاً قوياً يستطيع التعبير عن حقوقها ورغباتها . فقد كانوا قادة الشعب وزعمائه الروحيين والفكرين وكان أغلبهم من الملاك والأعيان الذين تتأثر مصالحهم تأثراً مباشراً بفوضى الأداة الحكومية واستبداد المماليك الإقطاعيين . وكان لهم من الإلمام بقواعد الشريعة الإسلامية وتعاليم الإسلام ما يمكنهم بل ويوجب عليهم الحد من طغيان الإقطاعيين وقد جعلت هذه العوامل مجتمعة — من العلماء الزعماء البارزين في معظم الحركات الشعبية التي هبت لمقاومة ظلم المماليك ...

ولقد تغيرت طبيعة حركات الكفاح الشعبي بعد أن وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون .. فلم يكن الفرنسيون مصريين أو شرقيين ولم يكن بينهم وبين المصريين من الصلات غير صلة الاستغلال والإذلال والمهم أنهم كانوا رسل دولة أجنبية يعملون لتوطيد أقدامها واجتلاب المصالح والاسلاب لها ..

إذن فقد كان المصريون على حق في بغضهم وازدراءهم للحملة الفرنسية مهما قيل من أن حياتهم لم تكن بالحياة السعيدة أو العادية تحت حكم المماليك ، وكانوا على حق في مقاومتهم هذه المقاومة الرائعة التي بدت منهم في كل مكان وطئت القوات الفرنسية .

ولم تفلح كافة المحاولات التي بذلها نابليون لاجتذاب الشعب المصري إليه . فلا المنشورات ولا الوعود ولا الديوان ولا غير ذلك من الإدعاءات

أفلحت في التغرير بقول المصريين أو تشويه هذه الحقيقة التي وصلوا إليها بفطرتهم السليمة وهي أنهم أمام عدو أجنبي لا يجب الاطمئنان إليه وكل ما يجب هو مقاومته ومقاومته بشدة وبلا هوادة .

كان هذا الشعور صادقا وسليما وواضحاً لا شك فيه . . . وقد صادف هذا الشعور من الأسس المادية ما جعله يتبلور ويتركز ويعمق في القلوب والأذهان معاً وما أدى إلى إيجاد قيادة واعية نشطة . .

فقد كان أول ما عمد إليه نابليون عقب استقراره في العاصمة بأيام معدودة أن أخذ في فرض الضرائب وتحصيلها بكل ما يمكن أن يجدى من الوسائل ولو وصلت إلى القسوة والعند .

ولم تقتصر هذه المقارم على الأيام الأولى من الاحتلال بل استمر الفرنسيون في فرض الضرائب وجمع الأموال ولا سيما بعد أن تحطم أسطولهم في معركة أبوقير وأصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقي الأمداد والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد . فأخذ الفرنسيون من ذلك الحيز يتفنون في استخراج الأموال من البلاد ومن أهلها وتذرعوا إلى ذلك بوضع النظام الذي ابتدعوه لإثبات الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض الإتاوات الجديدة .

إذن فقد كانت الضرائب منصبة في غالبيتها على طبقة التجار وأصحاب الصناعات الحرفية فهي لم تمس إلا من بعيد طبقات الشعب الفقيرة التي لا تملك شيئاً يمكن أن يؤدي عنه ضريبة أو تفرض عليه إتاوة . .

ولكن هذه الطبقات الكادحة كانت تكره بطبيعتها وبداهتها الصادقة هذا التدخل الأجنبي السافر ، وكانت طبقة التجار تشارك بقية طبقات الشعب هذا الشعور الطبيعي الفطري ولكن هذه العوامل المادية الواقعية

التي مست مصالحها في الصميم وأقنعتها بأن التدخل الأجنبي لا يمكن أن يقف عند حد طعن الكرامة الوطنية والشعور القوي في صميمها بل يتعداه إلى حد أن يفتدو خطراً يهدد مصالحها وحياتها . . وهكذا كان شعور هذه الطبقة بخطر الاستعمار الأجنبي شعوراً قوياً واضحاً وكان شعورها بضرورة الانتفاض على الوضع شعوراً يستند على أسس معنوية ومادية معاً . . .
لذلك نراها تلعب الدور القيادي في الثورة . . . فهي أول من يهب لتحريك النفوس . . . وهي التي تبذل المال رخيصة في سبيل الاستمرار بها إلى غايتها . . .

* * *

ولكنني نسيت أن أحدثك عن مؤلف هذا الكتاب . . .
وماذا يعنيك من أمر هذا الرجل غير أن تقرأ له فتستمع إلى كلماته تنساب إلى نفسك فتعرف عنه مباشرة كل ما يمكن أن يعرف رجل عن رجل يرافقه بعض النهار وبعض الليل . . . يطلق فيه الحديث مرسلاً في غير كلفة أو جمود أو تصنع . . . فيضحك إن أراد الضحك ويسخر إن أراد السخرية ويبكي إن كان في الحديث ما يدعو إلى بكاء . . .
وربما تكون قد قرأت بعض ما نشر من قصصه في جريدة « المصري » ، وربما تكون قد تلعت رواية « الأرض » ، التي تظهر حلقاتها تباعاً في هذه الصحيفة .

وربما تكون قد قرأت بعض ما كتب من فصول وقصص في « المصور » ، و « الاثنين » ، و « قصص للجميع » . . .

وربما تكون قد قرأت ما كتب من مقالات في مجلة « الكاتب » ، ولا بد أن تكون قد قرأت قصيدته التي وجهها « من أب مصري إلى الرئيس ترومان » . . .

فأنت إذن تعرف عن المؤلف ، كل ما تريد . .
هل ترى يعنيك أن أقول لك إنه ولد في قرية الدلان بالمنوفية ١٩٠٠
إن أعماله جميعاً تنطق بأنه فلاح عريق في مصريته . . . وإلا فكيف
أمكنه أن يصور هذه العلاقة العميقة التي تربط بين الفلاحين المصريين
و « الأرض » . . . وكيف أمكنه أن يضع هذا الحوار « الأصيل » على
اللسنة أبطاله الذين يطلب أن يكونوا من الفلاحين ١٩٠٠ ؟

أم يعنيك أن أقول لك أنه قد ولد في عام ١٩٢٠ . . ١٩٠٠
لا شك أنك أدركت ذلك من كثير مما كتب فهو قد خرج إلى
الوجود والشعب كله تأثر يريد أن يخرج أيضاً إلى الوجود . . ورأى في
طفولته وشارك في قوته كفاح هذا الشعب من أجل الدستور
والاستقلال . . ولم يترك فرصة تمر في كل ما كتب من فصول أو قصص
أو قصائد — دون أن يتحدث عن الكفاح من أجل الدستور أو
« اللامعة » كما سماها الفلاحون بعض الوقت . . . وعن الكفاح في سبيل
الاستقلال

أم يعنيك أن أقول لك أنه متزوج وله بنت واحدة ١٩٠٠
لا شك أيضاً في أنك تعرف هذا بل وتعرف أن ابنته اسمها
« عزة » ، فهو قد ذكر لك هذا كله في قصيدته التي وجهها إلى الرئيس ترومان
وذكر فيها عزة وابني وابنك وأبناء أصدقائنا . . فهو لا يجب السلام من
أجل عزة وحدها . . بل من أجلنا نحن ومن أجل أبنائنا جميعاً . . .
أنت إذن لا تريد أن نعرف عن المؤلف ، شيئاً جديداً . . . لعلك
الآن تسألني . . ومن أنت ١٩٠٠

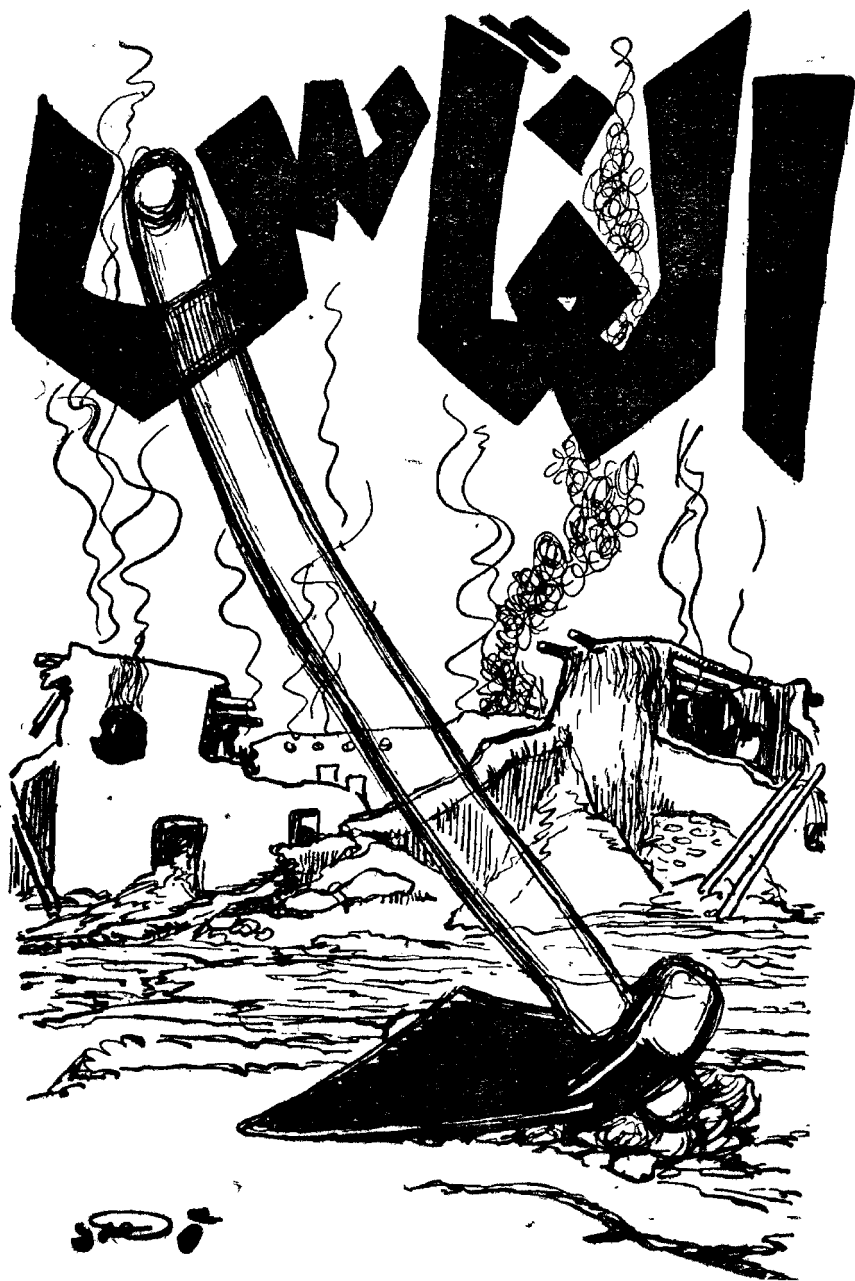
لقد جرت العادة أن يقدم أمثال هذا الكتاب واحد من كبار

الكتاب . . . فيصطنع كثيراً جداً من الحلم والتواضع ويربث على كتف صاحب الكتاب في حركات مسرحية مكشوفة ثم يقدمه إلى الجمهور . . .
أما هنا . . . فواضح جداً أن الذي يقدم الكتاب ومؤلفه ليس أحداً من كبار الكتاب . . . بل ولا حتى من صغارهم . . .
إنني قارىء يا سيدى . . . مثلك تماماً . . . كل الذى امتزت به أن مؤلف هذا الكتاب — وهو صديق قديم — أطلعنى عليه قبل نشره وطبعه . . . فأجبت أن أعلق عليه بكلمة . . .

فكانت هذه المقدمة . . .

ولأدعك الآن أنت وشأنك فى هذه القصص من كفاحنا الشعبى ؟

— سر لبيب —



ارتفعت الشمس قليلا في السماء ، فرفع ظهره ، وانتصب متثابرا ، وهو
يمسح عرقه بكفه ثم انطلق يغنى ... وبدأ الفلاحون يرددون أغنيته الحزينة
رتيبة النفثات.

ولاول مرة منذ الصباح شعر الجميع أن بينهم أشياء مشتركة اودوت
في الفضاء صبيحة ، وفرقة سياط ! .. وقيل : « ممنوع الصياح ! »
في الحق أن أحداً على الإطلاق لم يكن يستطيع الصياح في تلك الأيام !
وجدت الشفاء على مقطع مثير من الأغنية ..
كانت أغنية رائعة من أغاني مصر ! ..

وعادت حداثق البرتقال ترسل من جديد عطرها الذي ينفذ إلى
الاعماق من كل نفس ، وماء الكدح الإنسانى ما زال يختلط بالتراب ،
والسياط تفرع الهواء وظهور البشر بأقصى مما تمزق الفؤوس وجه الأرض ! ..
والسيد ما زال يكرر « ممنوع الصياح ! »

أما هو . فقد عاد يغنى ، وعاد الفلاحون يرددون أغنيته الحزينة ..
كانت الأغنية هي كل ما يملكون من تعبير .. كانت تتحدث عن مخازن الذرة
التي خلت من المحاصيل ، وعن الدور التي لم يعد يصيح فيها الدجاج ، وعن
القرية التي أقفرت من الرجال ، لأن المحتلين قد أخذوا كل شيء ، وحشدوا
كل ما في مصر من حيوان وطيور وغذاء لحربهم مع الألمان والأتراك ..
الخيول للحرب ، وكل الدواب للحرب ، والغلال .. وحتى لقمة العيش
أخذوها من أفواه الجياع ، ولم يكتفوا بذلك بل سافوا الكشدين منهم
إلى الحرب ! ..

والحرب — هذا الشيء الوحشي الرهيب — لم تكن تعنى مصر فى أى يوم من الأيام ، غير أن مصر فى تلك الأيام لم تكن تستطيع أن تقاوم ما يراد لها.. ونحن عند ما نشعر بالعجز نلجأ إلى الدموع..

وكان الفلاحون يذرفون هذه الدموع فى أغانيهم ، ومن خلال هذه الدموع تنهمر اللعنات المريرة على المستعمرين ، وتتناوح ذكريات من أبطال الحرية الذين ماتوا وهم يكافحون !..

وعاد الصوت الأجش يصرخ : « يا محمديا ابن الشيخ عمر أسكت .. قلت لك أسكت .. مالك وما للانجليز ؟ »



ولكن « الشيخ عمر » مات فى ثورة « عراقى » بيد الانجليزية .. فلمحمد عند الانجليز ثأر .. وكثيرون غير « الشيخ عمر » يموتون بيد الانجليز .. وآلاف من أمثال « محمد » عرفوا الجوع وهم يزرعون للانجليز خير ما يأكلون .. وخلال الحرب الكبرى عرف الجميع حقا ما

ذا يعنى بقاء الانجليز .. ومن قبل الحرب علمتهم دنشواى أشياء ما زالت تحتدم فى الحنايا . حيث يحتدم الألم ، والثأر ، والندم ، وكل رغبات الانتقام . لكل رجل فى مصر شأن بالانجليز ، إلا صاحب الصوت الأجش وسيدته الذى يملك هذه الأرض بما عليها من حدائق ، وبمن عليها من فلاحين ! .. إنه هو ، وقليلى غيره ، يبيعون ما تنتج أرض مصر للانجليز ، ويملاؤون خزائنها بالذهب ، ويلهبون الظهور بعد هذا بالسياسة وهم آمنون ! .. أن قوة هائلة تحميهم من غضب هؤلاء المعذنين كما حمت آباءهم من قبل ، عند ما

قامد عراى ثورة الفلاحين والمنبوذين فى أرض الآباء والأجداد والأحفاد
ورفع محمد رأسه ، ووضع فأسه على كتفه وهو يقول : « ما لى
وما للانجليز ؟ ١٩ . . . اسأل سيدك الباشا » . . . فصاح الرجل :

« اخرس ! » . . . ثم رفع سوطه وهوى به على وجه محمد . . .
والتف حول الرجل ثلاثة من الزبانية غلاظ شداد ، وأحاط بمحمد
كل رفاقة الفلاحين ، وكانوا مهزواين شاحبي الوجوه ، الفؤوس فى الأيدي ،
والأفواه باغرة ، و « محمد » يتلقى ضربات متتابعة من أربعة سياط ! . . .
ولم يهتز « محمد » . . . وكانت السياط التى تهوى على وجهه وجسده تمر
متشابكة أمام عينيه ، وتحمل إلى قلبه ما كان يتخيله دائماً : أرجل الخيل
المتشابكة التى سحق تحتها أبوه ومصريون كثيرون فى معركة التل الكبير !
إن هذا « الباشا » نفسه هو ابن أحد الذين مهدوا لمأساة « التل
الكبير » ، والفلاحون يعرفون أنه يحتفظ حول قصره فى المدينة القريبة
ببعض الجنود الانجليز الذين يطعمون من كدحهم . . . والفلاحون يعرفون
أيضا أن هذا الباشا يموت من الرعب إن بعد عنه الانجليز . . . فالجميع
يكرهونه ويريدون أن يبطشوا به ، ولكنهم يذكرون دائماً رصاص
أصحاب الوجوه الحمراء . . . والسياط تهوى على وجه « محمد » ، وظهره
وكل بدنه ، ودمه يسيل تحت الشمس التى أنضجت جلده ، والتي تسطع
منذ القدم على التراب المبارك . . .

لو أنه فتلك هؤلاء الاتباع الأربعة ، فسيجلده الباشا ، فلو أنه اعتدى
على الباشا لجلده الانجليز ، ولو أنه اعتدى على جندى انجليزى واحدفسيقتل ،
وربما جلد أهل القرية جميعاً حتى النساء ، وقتل من رجالها كثيرون ! .
ولكن علام تحرص القرية ؟ ١٩ . . . أن الحياة كلها لم تعد تستحق بعض
هذا الهوان . . . فهى حلقات تعبئة من الجوع والمأساة والموت . . .

ويبد متشنجة تندفع فيها إرادة جيل كامل من المعاناه والحرمان ،
رفع محمد فأسه وهوى بها على رأس شيخ الزبانية ، وخر الرجل على
الأرض وقد تناثرت خلايا مخه ، وأصبح لدمه على الأرض التي ملأها
طويلاً بالصلف ، مثل الأديم المتدوج من أوراق الزهور الحمراء وصاح
الفلاحون جميعاً : « أضرب يا محمد باسم الله ! .. واهتزت القفوس في
الهواء وهوت الأيدي المعروقة على رؤوس الزبانية .. وسقط رجلان ..
أما الثالث فقد طار ! .. وإذ رآه الفلاحون يجرى وهو يصرخ انطلقت
صياحاتهم القوية الساذجة البيضاء ، التي بدأت تندفق منها الحياة !

* * *

وعلى سلم القصر الباذخ وقف الباشا، يرتعش وهو يصيح : « يا جون
أنجذنى يا جون . الكلاب المسعورة ستأكلنى . الفلاحون يا جون قتلوا وكيلى
واثنين من أتباعى . إذهب إذهب يا جون . ولكن لا تقتلهم جميعاً . وإلا
فمن يعمل فى الحقول ! أو اقتلهم كلهم وسأجد غيرهم كلاباً آخرين لا يكفرون
بالنعمة يا جون ! ..

وعندما ذهب «جون» يقود عشرة من الجنود الانجليز على ظهور الخيل ،
كان الفلاحون فى طريقهم إلى قصر «الباشا» يلوحون بالقفوس فى الهواء
وهم يهتفون . ويحيا العدل ! وكانت النسوة والاطفال قد خرجوا وراء
الرجال والجميع يصرخون : « يسقط الانجليز » .

وبلا كلفة ، أطلق «جون» الرصاص على الفلاحين وهو يسخر وخاض
فى الجموع بخيله .. وبدأت الأجساد المهزولة تسقط تحت سنايك الخيل ،
والرصاص يخترق الصدور والرؤوس .. وكان الفلاحون يرمون بأبدانهم
على الجنود ، يضربون بالقفوس والحجارة ، وينشبهون الاطراف فى الرقاب !

وهوى اثنان من الجند .. فثالث . وغنم المصريون ثلاثة بنادق . ا ثم
رابع ، خامس .. ثم هوى د جون ، نفسه .

وصاح من بقي من الجنود العشرة : « سنهلك جميعاً . ولوى أجدهم عنان
جواده يسابق الريح وتبعه الثلاثة الباقون ، فصاح د محمد ، بأهل القرية .
د لقد هربوا يا أولاد . فلا تضربوهم من الظهر ، وأطرق الفلاحون في
جلال نبيل ، ولكن منظر الضحايا جعلهم يحرون في أثر الهاربين .

ولم يعد أحد من الانجليز إلى قصر الباشا ، فقد سقطوا جميعاً على الأرض
التي حسبوا أنهم مALKوها ا .

ومضت القرية تشيع موتاتها وتبكي على الذكرى ، وفي العيون يشرق
أحياناً بريق الانتصار يضرمه زهو المقدرة ا .

واختلط عطر البرتقال برائحة الدم .

وأرسل الباشا ، إلى د محمد ، يسأله عما يريد ، ويعرض عليه أن يعينه
عمده للقرية ليعود د محمد ، إلى طاعته والاخلاص له ، وتعود القرية كما
كانت منحنية الظهر .

وضحك د محمد ، طويلاً وقال للرسول أنه لا يريد من الباشا شيئاً ، وأن
ما يريده هو أمر لن يفهمه هذا الباشا المسكين ، ولئن فهمه فسيجن من
الرعب ، ولئن كانت القرية قد انحنت يوماً ، فإنما فعلت ذلك لتلتقط نفسها
لضائعة في الطين . وهي لن تنحني بعد .

ومضى الباشا بنفسه إلى القرية يزور قبور الموتى ويتصدق على ذكراهم .
ورفضت القرية الصدقات ، وطالبت د الباشا ، أن يتخلى عن حرسه

الانجليز، وأن ينذروا صدقاه وسادته الانجليز ألا يحاولوا مرة أخرى اقتحام
أرض القرية التي تضم في أحشائها رفات الذين ذهبوا وكان «الباشا» يدرك
أن حملة انجليزية قوية لا بد أن تقبل ذات يوم لتأديب القرية ، ولكنه
كان يخشى مع أملة هذا أن يذهب هو نفسه ضحية ثورة القرية . .

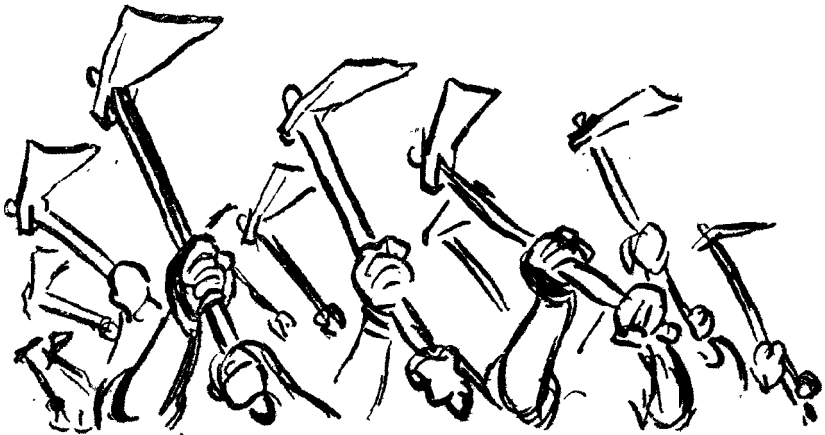
وكان ما لم يكن منه بد . . فبعد عشرة أيام شهدت القرية حملة انجليزية
من مائة جندي ، فتسكت بالرجال والنساء والأطفال على السواء . . .
وبحثت عن «محمد» في كل مكان فلم تجده . . وأقامت بالقرية يوماً وبعض
يوم ، ثم تركتها حطام بيوت ، وبقايا رماد من حريق يتمرغ فيه العاراء . .
ومرة أخرى أندلعت النار من تحت الرماد كما توقع «الباشا» ، وكما لم
يتوقع الانجليز !

لم تكن القرية وحدها هذه المرة . . وإنما كانت كل قرية في مصر
تردد نفس الهتاف : «يحيا العدل . . يسقط الانجليز !» . . .

وعاد الجنود يضربون ، ولكنهم على أية حال لم يستطيعوا أن يضربوا
إلى النهاية فقد تلقوا كثيراً من الضربات . وأذعنوا آخر الأمر وأعطوا
الناس في القرى والمدن بعض ما كانوا يريدون !

ما زال «محمد» ابن الشيخ عمر ، يذكر كل هذا الذي حدث منذ أكثر
من ثلاثين عاماً . . وأنه ليجلس اليوم في قريته كل مساء يروي للفلاحين
كثيراً من قصص تلك الأيام . . ثم يرفع عمامته ويحك رأسه البيضاء
ويقول لأحد الفلاحين : «أنا كنت في سنك !» ، ويضحك الفتي في طيبة
وخجل ، ويضطرم وجهه الأصفر بالدم ويقول : «وأنا أقدر !» . .
ثم يضع «محمد» عمامته . وينظر إلى فتي آخر قائلاً : «يا حسن يا ابن خضرة . .
أمك كانت أشجع منك !» . . ويترحم «حسن» على أمه ثم يقول : «يا عم
الشيخ محمد . . وأنا ما ذنبى !» . .

لم تعد السياط تهضج الجلود بعد ، ولكن الظهور ما تزال منحنية تحت
الشمس بلا طائل ، وأصحاب الوجوه الحمراء يحتشدون في الصحراء ،
ويستعبدون الرجال بالمصالح وعطر البرتقال يفعم نسمات الأرض
العريضة ، ودمحمد ما زال يؤمن بأن القؤوس يجب أن ترتفع من جديد .
وفي أعماق كل الفلاحين أمل مبهم وهتاف صارخ : دمتي ترتفع
الفأس . . أيجب أن نرفع الفأس ؟ .





— اسكتى . . اسكتى . . قلت لك اسكتى ! اسكتى !

ولكن خديجة لم تسكت ، والحق أنها لم تكن تستطيع أن تسكت وفي معدتها صراخ وجفاف . . وهى بعد لا تعرف ما توجه ضرورة الحياة على الأحياء فى بعض الأحيان ، وإنما تنطلق بكل سنواتها الثلاث مخلصاً لطفولتها ، فتضحك إذا داعبها أحد ، وتبكي عندما يلذعها الجوع ، وتصرخ إن لم يجد ما تحب .

وهى على أية حال لا تستطيع أن تدعى لهذا الأمر الذى اتى على الناس منذ حين بأن يضحكوا ويفرحوا ويرقصوا ، لأن « عديلة » ابنة « إبراهيم بك الكبير » مستزوجة !

وكانت الأم تعلم جيداً أى شىء يمكن أن يدهم الدار من جديد لو سمع أحد الذين يراقبون تنفيذ الأوامر صراخ هذه الطفلة الجائعة . إن أحداً على الإطلاق لا يستطيع أن يدرك ما عاتته الأم لتقيم على باب الدار راية ، من الحرير الفاخر دبلاً على الابتهاج الصادق بزواج الأميرة . . كما حتمت الأوامر !

ولقد تعبت الأم من الطفلة ، فهى ما برحت تبكى وتطلب الطعام وتسأل . عن أبيها الذى تعود أن يحمل لها بعض الحلوى وهو عائد من السوق .

غير أن أباهما قد مضى إلى حيث لا يعلم أحد ، كما مضى آباء كثيرون غيره . وبعضهم هرب من القاهرة ليستقر فى بلد آخر بعيد ، وبعضهم تخطفه لصووس الصحراء فى الطريق ، وكثيرون ينفقون فى السجن أياماً مستطول فى الغالب حتى يضع لهم الموت ختام المأساة التى يسمونها الحياة . . .

... والطفلة ما زالت تبكى والام حائرة ، فقد ارتحل معظم الجيران ،
ودور كثيرة في هذا الزقاق من حي « طولون » ، قد سميت أبواها . وفي
الزقاق المجاور خطف رجال الشرطة بالأمس فتاة كانت تبكى أباهما السجين
ويقال أنها قتلت ، ويقال يل ترك الحزن والفقر والذلة لها بقية من حسن
تشفع عند رئيس الشرطة ! ..

إن رئيس الشرطة هذا يلقي الرعب في نفوس النساء والرجال على
السواء ، فلشغفة بنساء الشعب قصص خيفة ، ومن راقته له من زناء
الشعب أهداها إلى مولاه إبراهيم بك . ومولاه يثق فيه ويعتمد عليه في
مثل هذه المهمات ، ولا يكاد يوجد في القاهرة كلها رجل واحد يطمئن
إلى حياته أو عرضه . وكثيراً ما يجد الرجل نفسه مضطراً للاختيار بين
واحد من الإثنين : العرض أو العمر ! والنساء يعشن في جزع دائم خشية
بلاء قد يقع فجأة بلا مناسبة مفهومة . وقد أصبح الجمال نقمة تحاول النساء
الحرائر إخفائه خوفاً من المصير الرهيب !

وعادت من جديد تحاول أن تسكت الصغيرة عبثاً ! .. ووضعت يدها
على فمها الصغير في رفق لتخفي صوتها وهي تغالب الدموع ، إنها هي نفسها
لم تذق الطعام منذ يومين ، فقد نفذ كل ما في الدار وهي لا تعرف كيف
يمكن أن تحصل على الطعام بعد أن غاب زوجها مع الغائبين .

وليس زوجها غير واحد من مئات كانوا يلفقون عيشتهم في القاهرة
حتى أصابهم ضربة الأمير

كان الأمير « إبراهيم بك الكبير » بعد العدة لزفاف ابنته عديلة إلى
« إبراهيم بك الصغير » . وقد أخذ يشيد للعروسين قصراً فاخراً في بركة

الفيل ، وأحضر صناعاً من الفرنجة ليعدوا للأميرة مركبة أنيقة مزركشة بالذهب الخالص لتنقلها إلى قصرها الجديد ، وبدأ يشرف على إعداد أثاث من أئمن أنواع الخشب ، وأرسل إلى التجار الهنود يطلب منهم عقوداً من اللؤلؤ الأصيل ، ومئات من التحف المصنوعة من الأحجار الكريمة النادرة ، وأمر بأن تكون ملابس الزفاف من الحرير الموشى بخيوط الذهب ، وأن ترصع بجواهر لم تحملها امرأة من قبل

وكانت هذه هي أحلام الأميرة الصغيرة التي فقت باثرف والعبث الطويل ، غير أن ما في خزان الأرض لم يكن كافياً لمطالب الغانية العابثة !

وفرض إبراهيم بك على القرى ضرائب جديدة . ولم تكن الضرائب القديمة قد أبقت للفلاح شيئاً ، ومع ذلك فقد استخلص الأمير من الريف كل ما يمكن استخلاصه من جائع يموت . وما تزال مطالب الأميرة تحتاج إلى مال !

وأخيراً فرض على التجار ضرائب فاحشة ، وكان بعضهم يترنح تحت وطأة الضرائب القديمة ، فأرسل إليه التجار متوسلين أن يعفيهم من هذا البلاء الجديد ، ولتقتصد الأميرة قليلاً فيما تريد ، لتسكن حبات عقدها اللؤلؤية أقل عدداً ، لتسكن عربتها مزركشة بالفضة ، لتسكن جواهر ثيابها متواضعة بعض الشيء ..

ولكن الأمير استشاط خنقاً من هذه الجرة عليه وعلى أحلام ابنته . وأمر رئيس الشرطة أن ينظر في وقاحة العصاة !

وأذّر رئيس الشرطة كبار التجار ، فدفعوا إيثاراً للعافية . واستطاع بعض صغار ومتوسطي التجار أن يدفعوا ، وبقي بعد ذلك عدد كبير عجز عن الدفع .

وعاد الأمير يهدد العاجزين بأن وقت زفاف سيدتهم عديلة ، قد
أزف ، ويجب أن يدفعوا ما طلب منهم وهم صاغرون . . ، ورد التجار
على رسول الأمر بأنهم يقدرّون حاجة عديلة ، إلى المال ، ولكنهم
— مع احترام حلها بزفاف يشبه ما تزويه الأساطير — يعانون ضيقاً لم
تروه الأساطير أبداً . . . فبعضهم لا يملكون ما يدفعونه ، ومنهم من
لا يكاد يملك قوت غد أو بعد غد . . .

ولكن الأمير صمم على الانتقام من هؤلاء البصاة . وتسامع التجار
بما يدير لهم فبادروا بالهرب والنجاة بأنفسهم بعد أن دسروا الخوانيت .
وقبض مع هذا على كثيرين ، ونهبت الشرطة الخوانيت والدور ، ولم تنس
أن تهيب النساء ! وأصبحت القاهرة كلها باكية تهمهم بغضب مكظوم ،
فانتكاد تمر في شارع حتى تنتقل من بكاء إلى بكاء على إيقاع مرير من
الصراخ واللعنات

وعلى أية حال فقد حصل الأمير على ما يريد من مال ، وتم تشييد
القصر واعداد العربة وملابس الزفاف ، ولم يبق إلا الاحتفال ، والقاهرة
تمتلئ بالزفريات وتنزف منها الجراحات ، وفي الريف يموت الناس
بلا حساب !

ونظر الأمير في الأمر وأعد له تدبيراً

أما أهل الريف فليمتوا كما يشاءون فلن يسمع لهم في القاهرة نواح !
ولكن هؤلاء الذين يملأون النهار والليل بالحشرات والعويل من
« الغورية » إلى « خان الخليلي » ، إلى « طولون » . . . إنهم ليحملون شؤماً
لا نهاية له للأمير الشاب إبراهيم بك الصغير ، ويفسدون على عروسه
الغانية بهجة الزواج

واصدر د. إبراهيم بك الكبير ، أمره للناس أن يفرحوا ويضحكوا
على الرغم من كل شيء ، وأن يقيموا الرايات على الدور اعلانا
لابتهاجهم . . . الصادق !

... ولكن د. خديجة لا تضحك أبدا ، وهي لا تكف عن البكاء ،
طالجموع أقوى من أفراس الأمير وأحلام الأميرة ، وأقوى من الصدق ،
وأقوى من الابتهاج ، وأقوى أيضاً من كل أمر . . .
وعادت الأم تضع يدها على فم الصغيرة لتخفي صراخها ، ولكن
بلا طائل

ودق الباب . .

وشددت الأم قبضتها على فم وحيدتها وقد دهمها ذعر هائل
وتعالت الدقات على الباب

وبدأت تضحك لتخفي صوت الطفلة في ضحكاتهما هي ، ضحكت في خوف
وعصية ويدها تتشنج على فم الطفلة ، وحملت الطفلة وأخفتها وراء ظهرها
وهي جالسة معلنة العين بالباب ، وما زالت تضحك وتضحك ويدها
تضغط على كل وجه الطفلة !

وتحطم الباب ، وامتلات الدار برجال الشرطة وقد التمت تحت
مشاعلمهم عشرات الخناجر والسيوف ، ومقابض السياط
وفي تلك اللحظة بالذات كانت الصغيرة قد كفت عن البكاء تماما
ونظر رئيس الشرطة في وجه المرأة التي كانت ما تزال جالسة ويدها
خلف ظهرها تضغط على وجه الطفلة وقال :

— من هنا يبكي في ليلة زفاف الأميرة ؟

— أبدأ أبدأ . . أنا أضحك ، نحن نضحك ! والنبي ! . .

وهوى سوط حاد على جسدها فاهزت من الألم وتقلص وجهها
رأغضت عينيها وهي تنصب واففة وقد تراجعت إلى الوراء متعثرة
بالطفلة الملقاة على الأرض

وهوى سوط آخر عليها فلم تستطع أن تصرخ ، وبوضعت وجهها في
يديها المتشنجتين ، واهتز بدنها تحت ثوبها الذي تمزق من فوق كتفها
البارز العظام

وتحت خفق المشاعل لاح صدرها رجراجاً ، طيباً ، فائن السمرة ! ..
وأشار رئيس الشرطة إلى رجاله أن ينصرفوا ، وقتل شاربه الضخم ،
واتمعت عيناه في وجه الآخر المنتفح ، وتقدم بكل جسده المتكرش
الطويل في خطوات ثابتة منتصرة ، وأخذ ينظر في صدرها وجسدها ...
كانت في الثامنة عشرة ذات وجه عادى لوحه الهزال ، ولكن بدننا ما زال
يحفظ خلال قتله السمراء بذلك الخصب الذي يتدفق في الأجساد
المصرية

ولم يعد أحد في القاهرة يبكي بصوت مسموع ، وكانت الزغاريد
والأنغام تملأ السماء ، أما الأرض فقد استطاعت أن تنحي مآسيها إلى حين !
وخرجت الأميرة من قصر أبيها في عربة غريبة يخطف لونها الابصار ،
والأعلام ترفرف على مشارف القصور ، والبيوت الفقيرة والخوانيت .
وتجمع في أركان الطرقات بعض الناس يشهدون موكب الأميرة يتقدمه
العلماء وكبار التجار والأعيان ، ويروون في همس حائق قصص فضائح الأميرة
وقال رجل لصاحبه :

هل الدين يرضى عن هذا ؟ لنظر : . العلماء يمشون بأقدامهم الطاهرة
أمام عربة الـ . . .
اسكت يا شيخ . . أن لك أولاداً صغاراً .

يا عم الرازق هو ربنا .

واختفت همسات الحق في وسوسة الحرير والذهب ، وغبار الموكب العظيم .
واستقر الموكب في القصر الجديد حيث مدت الموائد ، ودارت الخمر
في كؤوس الذهب والفضة و انسابت الراقصات الشركييات ، وتناثر الذهب
على الأجساد المرمرية التي تتلوى تحت أضواء المشاعل الحمراء ، عارية
صارخة الفتنة .

وودعت الأميرة العروس أحد عشاقها العديدين بقبلة خاطفة محتلسة
من وراء حجاب ، ولمحها أحد كبار التجار فاستعاذ بالله !
وبرزت للناس في ثيابها الخاطفة الفاخرة وفي عقد من اللؤلؤ الخالص
باهر المنظر . وقال أحد العلماء اصاحبه :
أن الله لا يرضى بحضورنا هنا !

وحاول أن ينهض وهو يقول : « إن حبات هذا العقد ليست غير ذوب
دموع شعب جائع ، .

ورد عليه صاحبه : « نعم نعم صهرها عذاب طويل وانتظمت عقداً
تلهو به غائسة في حفل شياطين . . أنها ليست دموعاً بل دماء ! دماء
شعب منكوب . .

وأقبل عليهما إبراهيم بك الكبير وهما يتناجيان فزف اليهما بشرى طيبة
كان يدخرها لكبار الملاك ، فسمعني العلماء منهم خاصة من بعض الضرائب .
وضحك الشيخان ، ولم يتحدثا في ليلتهما تلك عن دموع الشعب ، أو
الشياطين أو الدماء !

وكلما تقدم الليل دارت الخمر بالرؤوس ، وكان الأمراء يغازلون نساء
بعضهم أو نساء الأعيان ، والأعيان يغازلون نساء الأمراء . وفي منحنيات
حديقة القصر ودورب الحريم السرية كان الرجال والنساء يتسللون ، اثنين اثنين !
وإبراهيم بك الكبير يروح ويغدو يحى العتيوف مترجماً من السكر ،

ويسأل العلماء ١ عن رضا الله ورضا العلماء . . وما أكثر ما شبع في تلك الليلة من الرضا . .

وبينا كانت إحدى نساءه تعود من مغامرة في الحريم واجهته مع مملوك شاب في بعض الخلوات، فصفعته وانصرفت إلى مغامرة جديدة مع شاب آخر، وانصرف الرجل الكبير إلى تحية الضيوف، لاسيا العلماء . ليتأ كدم من رضا الله . . وحاول أن يغازل امرأة تاجر كبير، ولكنها لم تحفل به . فقد كان هناك برغم كل شيء نساء منيعات . . ولم يستطع أن يتال تقديرها . . فصاح يستنجد برئيس الشرطة صاحب الخندق الخاص في هذه الأمور ليقوم بدوره الخالد . ولكن رئيس الشرطة لم يمثل بين يدي مولاه ، وانتبه الأمير الكبير فجأة إلى أن رجله قد تخلف عن الاحتفال ، فأمر بعض رجاله في سرية وصلف أن يبحثوا عنه عند إحدى النساء المصريات .

وكان رئيس الشرطة فعلا عند إحدى النساء المصريات . . ولكن جثة تنهش فيها العفونة وسط بركة من الدماء النجسة ، وه إحدى النساء المصريات ، ما برحت قطعته بخنجر صغير في كل مكان من جسمه ١ .

وذهل الجنود بما رأوا . وحاولوا أن يقبضوا على المرأة ، ولكنها كانت تطعن كل من يدنو منها ، وأخيراً ألقته ضربة سيف على أرض الغرفة . وقد ظلت تضحك حتى فرغت لآخر مرة من الضحك والبكاء .

كان رئيس الشرطة منذ قليل يركل خديجة بغيدا عن أمها ، وهو يحاول أن يجذب الأم إلى أحضانه السكرية ، وركبت الأم لتحمل ابنتها ولكنها وجدت باردة كليا ، شاحبة كالحياة في تلك الأيام ، فأخذت تحركها وتناديها في حزن هائل مخيف خائق وإذ ذاك أحست بشارب الرجل يلس خده ، وقد التفت يده الثقيلة حول صدرها ١

ليس ثمة ما يخيفها الآن كآخريات سقطن خوفا أو طمعا ، لا زوج ولا أب ولا ولد يمكن أن تهدد بقتله أو سجنه ، والذهب ، كل ذهب

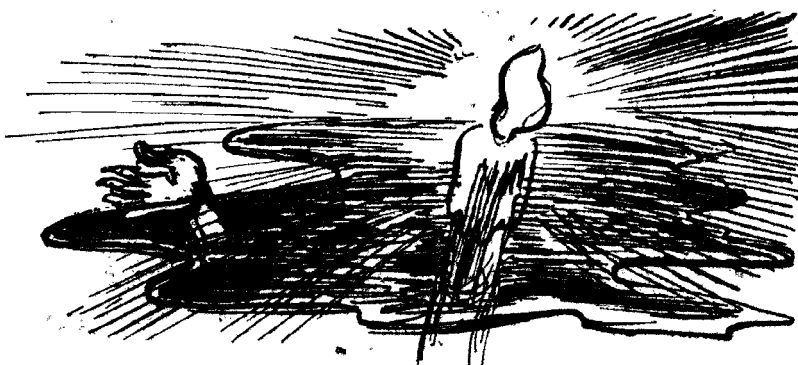
الأرض لا يغريها ، وإنما لتحتقر من أعماق نفسها أن تكون محظية الأمير نفسه ، وكل ما تعرفه الساعة أنها فقدت زوجها وابنتها ، وإنما قد تفقد حياتها ، ولكنها إن تفقد شرفها أبداً بعد ذلك

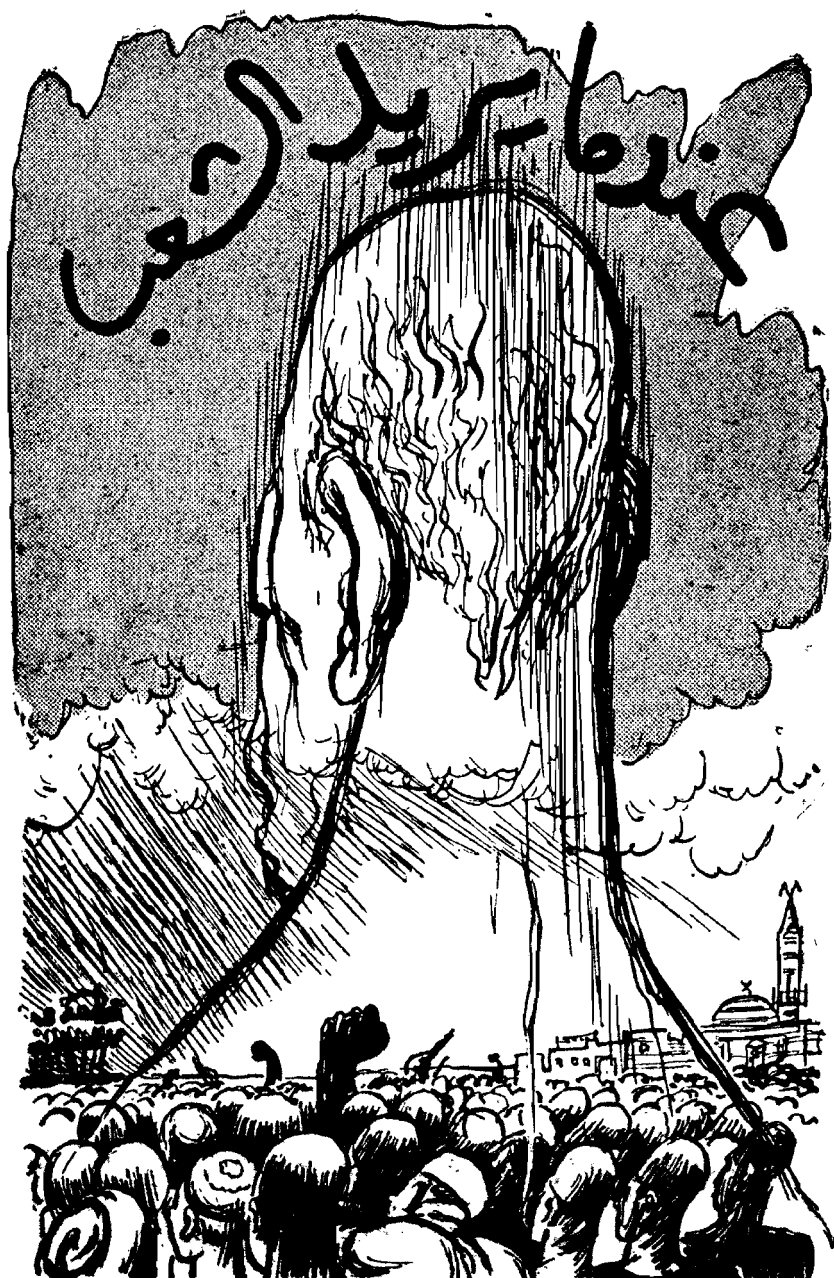
وفي لحظة من تلك اللحظات التي تولد فيها الخوارق نزع خنجر الرجل وانقضت عليه تطعنه بكل عنف النفس الإنسانية التي تثار لآلاف وسقط الرجل يخور في الدماء كخنزير ، وظلت هي تطعن وتضحك وتطعن ، وكأنما تمارس لأول مرة احساساً بالإنسانية الممتازة التي تستطيع أن تذود عن العرض والمقدسات البشرية

وقال بعضهم أن أم خريجة كانت قد أصبحت مجنونة تماماً عندما قتلت رئيس الشرطة الذي ترتعد من ذكر اسمه قلوب أقوى الرجال ربما ولكن نساء كثيرات من بعدها تعودن ، أن يصنعن مثلاً صنعت ، واليقين أنهن جميعاً عاقلات

وعلى أية حال كانت هذه الليلة هي آخر عهد الأمراء بالآفراح والسهرات الصاخبة المطمئنة والليالي الملاح

ولم تكد تمضي أعوام قلائل على هذه الليلة حتى كان العقلاء من الرجال والنساء يصنعون بدولة الأمراء نفس ما صنعت أم خديجة وعادوا جميعاً يضحكون كأحفل ما يضحك العقلاء الضاحكون .





أقبلوا مع الفجر : على الوجوه ظلمات الليل المنهزم ، وفي الأعماق منهم
يشرق أمل شاحب كشعاع اليوم الجديد . . كان السفر الطويل قد لوحهم
وقوص متهم الظهور ، بعد أن عصرت الحادثة قلوبهم الواجفة النبضات . .
أما الرجال فقد غرسوا عصيهم في الأرض واتكأوا عليها ونظراتهم معلقة
على باب الشيخ بينما جلست النسوة القرفصاء يهددن الأطفال ،
ويشتبكن في أحاديث تنقطع فجأة لتسقط الدموع مثقلة بالزفرات .
إن « الشيخ محمود ، الذي عاش ستين عاماً مرفوع الرأس لا يعرف
الآن أين يضع وجهه فقد خطفت أبنته .. وهو لا يكاد ينظر إلى باب « الشيخ
الكبير ، حتى يرد بصره في الجوع المنتظرة فيدهمه الألم والخجل من جديد
ويغلق عينيه على حمرات !

و « زينب ، لا تستطيع أن تمسك دموعها ، وهي تجلس بين النساء
منكسة الرأس بلا كلمة وكأنما فقدت صوتها تماماً . إنها لتنسى كل ما عرفته
أحوالها الستة عشر من محن .. تنسى الجوع والعذاب والموت نفسه ولكنها
لن تنسى أبداً تلك الليلة الهائلة !

كان الليل يلقي ظلاله الرهيبة على آماد لا نهاية لها من الأرض الطيبة
الخضراء التي لم تعد طيبة ولا خضراء . . وكانت القرية النائمة في أحضان
الظلال المرتدة تسمع من بعيد عواء الذئاب الجائعة ، فيغوص الأطفال
في أحضان أمهاتهم ويلتصقون بها ، ومن بيت الحاكم دوت قرعات السياط
مختلطة بمواجع الرجال وتقلب « زينب ، في فراشها الخشن وتحسست
كيانها الرقيق الأعجم ودعها . . خوف مبهم . . ، وفجأة وجدت عدة

رجال يسكون بها . انتزع أحدهم قرطها الأصفر فأدعى أذنها . وبادرت بإعطائهم كل حلبيها الزائفة التي بدت لهم كالذهب . . . فقد سمعت العذراء الصغيرة من الذين يكبرونها أنهم عند ما يقبلون ينتزعون كل شيء منحتهم كل شيء . لعلمهم يذهبون ولكنهم لم يذهبوا فقد بقي في العذراء شيء ينتزع ! . . .

وعند ما أفاقت تمنّت لو أنهم نزعوا حياتها وانتهى الأمر ! وخرجت تلول وتعثرت بأما السكامة الحسنة وأبيها وأخويها .. كانوا في سخن الدار راقدين في سكون خفيف جامد ولا حركة فيهم على الإطلاق غير دماء تتدفق بلا حساب . ولم تجد في الدار شيئاً آخر ... سكت الدجاج واختفى الأوز حتى البقرة . . . ولا حياة !

وعائشة كزينب ، وزينب كخديجة ، وأم السعد كالأخريات ، وللشيخ علوان ، نفس فاجعة الشيخ محمود ، وحسين كعمر ، وعمر كأحمد ، وأحمد كالأخرين قصص كثيرة متشابهة عن المال المغتصب والشرف المهدر والزراية ، والهووان ، والعار ، وكل ما يفجر من أعماق النفس بكاء تنقص به الصدور ولا تنفّس به الدموع !

إنها لعنة صبتها قدر غاشم على تلك القرية من مديرية الشرقية ، فتسلط عليها أتباع « الآلني بك » هبطوا إلى قصر حاكم القرية ذات مساء يطلبون المال لسيدهم .

وفي الحق أن « الآلني بك » كان يعاني حاجة ملحة إلى المال ، وقد كاد الضيق يذهب بعقله . ذلك أنه اشترى حديثاً بمجموعة كبيرة من المالكين الصغار ، واشترى معهم خمس فتيات من الشراكسيات الباهرات الفطنة ولقد أغدق عليهن الثياب والجواهر وأعطى لكل واحدة منهن قصراً وبقيت منهن واحدة بلا قصر . ولقد بدأ حبها يغزو قلبه وأخذت هي

بدورها تتدال عليه . إنه يريد أن يحتفل بإحدى ليالى العمر مع هذه الجارية المتمنعة فى قصر جديد تحلى جدرانہ الرسوم المذهبة ، وتنبثق من نافوراتہ المرمية مياه النيل المصفاة .

لا بد من مال . هكذا أراد الأمير . ولا يسأل الأمراء عما يفعلون وكذلك أتباعهم لا يسألون .

ومضى الأتباع يجوبون من القرية ما فرضها عليها الأمير . ولم يكن فى القرية رجل واحد يستطيع أن يدفع درهماً فائضاً وقد عرفت القرية من قبل كيف يموت الإنسان من الجوع .

وعبثاً حاول حاكم القرية أن يشرح لأتباع الأمير . فقد جمعوا الرجال فى ساحة القصر وانهلوا عليهم بالسياط وطافوا بدور القرية يقتلون من تختلف فيها من الرجال ويخطفون ويغتصبون كل ما يعثرون به : أدوات نحاسية طيور ، ومواش ، وحلى ، وملابس .. والعذارى الصغار ، ومن راق لهم من النساء !

ومضوا عن القرية بأسلابهم يتضاكون .

ولم تسكد القرية تستقبل الصباح بعد تلك الليلة المشؤمة حتى شيعت ضحاياها فى إذعان ، وبدت القرية كلها — كأخوات لها من قبل — خجلى ، مطأطئة الرأس ، مشبعة بروائح الذل والهزيمة والدماء .

وصاحت امرأة عجوز : « لماذا لا نشكى لسيدنا الشيخ ؟ » .

وردت عجوز أخرى : « وهل اشتكى غيرنا ؟ » .

وقاطعها رجل يتحسس ظهره : « اسكتي يا شيخه » .

وقال الشيخ محمود : « تعالوا نسافر ... » .

والتهبت الفكرة فى الرؤوس وانتفض الجميع وقدر تبين كل واحد منهم

لجأة أنه فكر في هذا السفر ولكنه خافت بالفكر ضيقه !
ومضوا جميعاً إلى القاهرة ليعرضوا الأمر على الشيخ عبد الله الشرفاوي ،
فهو يملك من أرض القرية حصة كبيرة ، ويلبني له أن يرى رأيه في عدوان
، الأتني بك ، على أرضه ، وعلى أهل قريته . .

وقرعوا باب الشيخ ، وانتظروا . . وبعد حين خرج اليهم مروغا
فسمع منهم وأفاضوا له . ولم يستطع الشيخ ، أن ينتظر حتى يسمع قصص
الفضائع ، قصة بعد قصة فقد امتلأ حنقاً وغيظاً أن ، الأتني بك ، يهدر
حقوق المالكين ويستخف بشأن العلناء ويمشي هو وأتباعه بالبنى بين عباد
الله الآمنين . يجب أن ينتهى الأمراء من هذه السيرة بين الناس ، يجب أن
يعرفوا أن هناك حقوقاً وحدوداً ونفوساً بشرية جديدة بالاحترام .

وهكذا مضى الشيخ مغضباً لا يكاد من فرط غضبه يرى أحداً . . .
وطرق باب دمراد بك ، فروى له كل ما حدث ، وسأله إن كان هذا
يرضيه ؟ وخرج دمراد بك ، بصمته عن لا ونعم . . . فطالبه الشيخ
أن يعطيه موثقاً من الله عن نفسه وعن بقية الأمراء ألا يمشوا في الأرض
بعد اليوم مفسدين ، وأن يكفوا عن فرض الضرائب . وهنا خرج
دمراد بك ، عن صمته وقال : د لا ، . . قالها عريضة متطرسة آمرة ،
ونفض مريد الوجه ، فانصرف الشيخ . .

وذهب إلى د إبراهيم بك ، لعله أن يشفي حاجات في الصدر . . . غير
أن د إبراهيم بك ، كان في شغل عن الشيخ ومظلمته بمجلس شراب مع
جواريه وغلبانه . فقال :

— هون عليك يا شيخ عبد الله فالיום خمر وغداً خمر ومن بعد

غدا . . .



عاد « الشيخ ، إلى بيته ذاهب الصبر ، قليل الحياة بعد أن أفتق يوماً كاملاً يجادل بلا طائل أميراً متعجرفاً وآخر ضعيفاً ، وكان الذين أقبلوا من الريف لا تدين به ما زالوا ينتظرون عودته في ساحة بيته وقد أطعموا وأخذوا قسطاً من راحة في ظلال الأشجار .. وقال سائلهم : « ماذا فعلت لنا يا سيدنا الشيخ ؟ » وقص عليهم الشيخ ما لقيه من يومه هذا فصرخ أحد الفتيان : « إذن نضربهم ! » . وتعال الصيحات حتى من الأطفال والنساء : « نعم نضربهم .. نحن أقوى منهم ... نحن أكثر .. معنا أهل الله في القاهرة .. معنا الله .. الله معنا .. فأشار عليهم الشيخ أن يهدأوا ، فهدأ أمر ومن بعد غد !

ولم تكد شمس الغد تشرق حتى كانت القاهرة تشهد عجباً .. سار الشيخ على رأس موكب ضخم من الفلاحين إلى الأزهر . وانضم إليهم أهل القاهرة وهم يهتفون بسقوط الظالمين . وفي الأزهر اجتمع العلماء وأغلقوا عليهم أبواب الجامع وتشاوروا طويلاً . ثم أصدروا أمرهم إلى الناس أن يغلقوا الأسواق والخوانيت ، وأن يمتنعوا عن أعمالهم وأن يكفوا عن ماملة الأمراء وأتباعهم . ومضى موكب العلماء إلى بيت « الشيخ السادات ، ومن ورائهم ألوف من أهل القاهرة والريف ، في قلب كل منهم أمل كبير أن يزول الكرب الذي يخيم على مصر ، وقد سرت طبيعة جديدة في هذه الجوع التي أذعنت طويلاً . ولعل هذه الطبيعة الجديدة التي دبت في الجوع بمثل طبيعة المد في الموج الزاحف ، لعلها هي التي سيطرت على العلماء الزعماء فعبثوا الأمراء لأول مرة كيف يخضعون . ذلك أن مجلس العلماء لم يكد ينعقد في شرفة « بيت السادات ، حتى تموجت الساحة بالخناجر والسيوف والفؤوس والسكاكين ، تلوح بها أيدي آلاف من الظالمين إلى

الآمن والحرية . وروح د ابراهيم بك ، بالزئير المتصاعد وبمنظر هذه
الأيدي الملوحة المتوعدة . كان في منزله المقابل لمنزل د السادات ، يرقب
من الشرفة هذا التدبير الخيف عبر د بركة الفيل ، فأحس أن كل هذا لا يمكن
أن يهمل أو يستخف به ، ولئن أهمل فربما ضاعت دولة المالك إلى آخر
الزمان . لقد كان هذا الجمع يبدو له مستعداً لكل شئ . . إنهم هناك خارج
منزل د السادات ، يصرخون طالبين رؤوس المجرمين : أى شئ يحرصون
عليه ؟ إنهم مستعدون للقتال حتى الموت .

وترخ د ابراهيم بك ، تحت ضغط هذه - الأفكار ثم أسرع فأرسل
إليهم د أيوب بك الدفتردار ، وهو رجل ماهر الحديث ، واسع الحيلة .
وأوشك الناس أن يفتكوا بأيوب بك ، غير أن العناية طلبوا من الناس
أن يتركوا رسول ابراهيم بك يدخل بسلام .

ووقف د أيوب بك ، والعلماء جالسون . واحتمل هو هذا الموقف
الذى لم يشهده من قبل ، ولم يكن غيره يستطيع أن يحتمله . فلو أن مثل
هذا حدث في يوم سابق لكان خاتمة نعسة لحياة إنسانية . وبعد أن جمع
أيوب بك أعصابه ألقي السلام على العلماء فردوا عليه السلام . وسألهم عما
يريدون . فقال الشيخ السادات : د نريد العدل ، ورفع الظلم والجور ،
 وإقامة الشرع . وإبطال الحوادث والمسكوس التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

فقال أيوب بك وكان ما يزال واقفاً : د لا يمكن إجابة هذا كله فانا إن
فعلنا ذلك ضاقت علينا المعاش والنفقات . . فقال له أحد الشيوخ : د إن
هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس . وأضاف آخر متعجباً : د ما الباعث
على الإكثار من النفقات وشراء المالك ؟ . ثم قال له واحد منهم :
 د الأمير لا يكون أميراً بالأخذ من الناس بل إعطاء الناس .

وشعره أيوب بك ، بأن ملكاته لاتسغه فليس لديه الآن مايقول .
وطلب منهم أن يأذنوا له بالانصراف ليلبلغ الأمراء بما دار ، ثم
يعود بالرد .

وانصرف . ولم يعد . وأخذ الشفق الأحمر يصبغ الأفق ولاحث
بركة الفيل ، كأنما هي بركة من الدماء . شاهد إبراهيم بك بعد لحظات
موك العلماء يتحرك على أمواج بشرية تهدر . واستقر الموكب في الجامع
الأزهر ، وهناك قضى العلماء والناس ليلتهم : وأدرك إبراهيم بك ، أن
العاصفة تتجمع لتنفذ بالصواعق على الأمراء ، فأرسل إلى العلماء يتملقهم
ويطلبهم أنه يؤيدهم ويعلن استنكاره للظالم التي وقعت ، ويرجو أن يعتبره
الشعب الثائر واحداً من الثائرين .

وأرسل في نفس الوقت إلى مراد بك ، يشرح له الخطر ، ويطلب
منه أن ينزل من عليائه فقد ثار الذين تحت التراب فقد جاء دور الذين
يقرعون بالسياط لينتقموا لأعراضهم وأموالهم وضحاياهم . وأنهم
ليستطيعون اليوم أن يصنعوا المعجزة . لأنهم التجار وأصحاب الحرف
والصنائع ومعهم رجال الشارع والفلاحون .

وذعر مراد بك ، من هذا النذير . وعند الظهر يسقط القناع لجأة
ليبدو الإنسان الذي يملأ الأرض صلفاً وضجيجاً وزحاماً ، كأننا آخر
هلوعاً يستجدي فقد سارع مراد بك ، فبعث إلى العلماء يسألهم الرضا
واختار منهم أربعة عينهم بأسمائهم والتمس منهم أن يتفضلوا فيقابلوه
بقصره في الجزيرة .

واستقبل العلماء الأربعة بترحاب بالغ وأولم لهم وليمة فاخرة وظل
يلطفهم إلى ساعة متأخرة من الليل ، ثم رجاهم أن يسعوا في الصلح بينه

وبين الشعب ، وأنه ليعد برفع المظالم عن الناس على أن يتنازل العلماء عن جزء من روايتهم المتأخرة .

وفي الصباح كان الوالى التركى فى منزل دابراهيم بك ، لقد ترك الباشا ، قصره فى القلعة بعد ماروعته الانباء . ودعا الامراء الى اجتماع عاجل . إنه يريد أن يحتفظ بمصر لتركيا ، وليحكمها أمراء الممالك كما يشاءون على ألا يبلغ ظلمهم للناس إلى الحد الذى يهدد بالانتفاض عليهم وضياع الأمر من يدهم ، وبالتالي ضياع ما يؤدون إلى تركيا من جزية . وبعد أن حضر جميع الأمراء أرسل الباشا ، فى طلب العلماء ، فاختاروا خمسة منهم ، وحاول الناس أن يعضوا وراهم إلى مكان الاجتماع ، ولكن العلماء آثروا أن يذهبوا منفردين فطلبوا إلى الناس أن يتفرقوا . ولكنهم عادوا فأحاطوا بالقصر ينتظرون .

وأخذ الباشا ، والأمراء يجادلون الشيخ السادات ، و السيد النقيب ، و الشيخ الشرقاوى ، و الشيخ البكرى ، و الشيخ الأمير ، و طال الجدل ، و سمع الأمراء كلاما لم يسمعه من قبل . كان العلماء يعددون لهم مظالمهم والجاهير خارج القصر تتوعد الظالمين !

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كتب دستور ، فقد تم الصلح وكتب القاضى دحجة ، وقعا الأمراء . . وهذه الحجة هى فى الحق دستور للحكم . . وجاء فى دالحجة ، أن الأمراء تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء . . وتعهد الأمراء بدفع سبعمائة وخمسين كيساً من النقود كتعويض لمنكوبى عدوانهم ، على أن يصرفوا الغلال د وأموال الرزق ، وعلى أن يرفعوا المظالم ويلغوا الضرائب المستحدثة ، و أن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس وأن يسبوا فى الناس سيرة حسنة ،

وعلى هذه الحجة ، وقع الباشا . . . وبتوقيع الأمراء ، وبتوقيع الوالى
أصبحت الحجة ، دستوراً ملزماً . .

وخرج العلماء من الاجتماع فتلقاهم الناس مستبشرين وقد علموا بكل
ما حدث ، ومضى كل شيخ وحوله كتلة ضخمة من أهل القاهرة والريف
وقد رفعوا رؤوسهم الآن وسرت فى الوجوه إشراقة النصر والأمل ،
وظلوا ينادون : « جميع المظالم والحوادث والمكوس بطلالة من مملكة
الديار المصرية » . . .

وفتحت الأسواق . . وعاد الناس إلى أعمالهم فرحين ١١





لم يكن يعرف ما يصنع بشبابه ، ولا بكل حياته . . . إنه ينفق أياماً باهرة من الفتوة والبطالة والفزل ، ولكنه مع ذلك يشعر دائماً إنه وحيد بلا أصدقاء . . . وفي بعض الأحيان يلج عليه إحساس مرهق بالتعاسة . . . لا صديق . . . والمودات التي تملأ حياته يشتهىها بذهبه ، ويمسكها عليه طمع الثمن حوله ، أو خوفهم . . . لكم ترهقه ثروته الفاحشة ، وإن كان دائماً يطلب المزيد . . .

وفي الحق أن أيامه كانت عجيبه على الدوام . . . فند عشرين عاماً كان يحيا في هذا القصر طفلاً جميلاً في العاشرة بين رجال فاسدين . . . وكان يجد فوق كفايته من الطعام والراحة والمتاع . . . وكانت الدنيا إذ ذاك تقوم ولا تقعد أبداً حين يبطىء النوم عن عينيه قليلاً ، أو حين لا تهجم به شهيته السمجة على ألوان الطعام جميعاً .

لم يجد في أى يوم رجلاً أو امرأة يقول له « لا تفعل هذا ، أو « لا تفعل ذاك » . . . ولم يتعود أن يفكر في شيء على الإطلاق ، فكل شيء ميسر له ولقد أصبح الآن في طويلاً عريضاً ضخماً متكرش البطن والأصداغ والعواطف . . . وهو بعد لا يقوى على التفكير ، لطول ما استغنى عن التفكير . . .

ولكنه الليلة يفكر . . . إنه على الأقل يستطيع أن يدرك أنه يعاني إحساساً ممتصاً بالسأم والفراغ . . . ماذا يصنع في هذه الساعات من الليل ؟ . . . أيوقد الشموع ويستدعى أحد ظرفاء القصر . . . إنه في كل ليلة يصنع نفس الأشياء ، وما برح الندامى والمحظيات يقولون نفس الكلمات

المضحكة التي شرعت تفقد مقدرتها على الإضحاك !
وتقلب في فراشه المخملي الوثير وهو يتأمل - في بلاهة جوفاء -
أعمدته الذهبية . . . وزفر أنفاس الضيق ، وعاد يتقلب في فراشه من
جديد . . .

وسمعت إحدى المحظيات حركة مولاهما ، فخشيت أن يكون هو الأرق
الذي يفسد ليلته منذ حين ، وأسرعت إليه . كانت أجملهن ، وكان زوجها
هو الآخر أكبر الاتباع !

ونظر إليها الفتى بملل ، وهي تحاول أن تعيد ترتيب الوسائد تحت
رأسه . . . وتبرم ، ثم قال في صوت خافت : « إذهبي ، وحاولت أن
تلاطفه فصرخ فيها بخشونة مباغته كشور فقد أعصابه : « قلت لك إذهبي ..
إذهبي إلى زوجتي . . إلى زوجك . . إلى الجن الأحمر . . إلى أي شيء ..
إذهبي والسلام ! »

وكانت تعلم أنها لو توقفت لحظة بعد فرما قتلها . . . وأسرعت إلى
زوجها لتروي له عن أرق مولاهما . . وفي الطريق إلى حجرة الزوج قابلت
أحد أصدقائه ، فنسيت أرق مولاهما ، ونسيت الزوج أيضاً . .
والفتى السعيد يتقلب في فراشه . .

إن خيالات كثيرة تترامى أمامه في الغرفة الهامدة الظلال . . أشباح
تتأرجح في طوفان من الدم والدخان . . صرخات محتقة في صور عذارى
صغيرات هوين أمامه من الرعب . . عشرات من الأيدي المعروقة ترتعش
في الظلام محدقة بمنقه تريد أن تلقيه في أمواج من اللهب . .

وصرخ صرخة مفزعة رجت جنبات القصر ، فامتلات الحجرة
الفسيحة بالمشاعل والعبيد والمحظيات وكبار الرجال والجنود . . وتسابقت
النساء - أمام أزواجهن - بمسكن يديه وجهته ولكنه انتفض واقفاً

في فراشه وهو يرتعد ، وأمرهم أن يرفعوا الستائر عن النوافذ ليدخل الهواء . . . وتسلك إلى الفرقة المروعة شعاع الفجر الهاديء الذي كان قد بدأ يغمر القاهرة في تلك الليلة من سنة ١٧٩٠ . . . وامتدت الحسينية ، من وراء النافذة بدورها وحوانيتها ومسجدها وطيبتها ، وقبابها التي ترتفع في إصرار ، وبدا له الحى آمنا لا يزججه عن نومه شيء . . . وزلزله هذا الصمت الرهيب الذى يحل دور الضحايا فصرخ :

— إنهم يتآمرون على هناك . . . اقبضوا عليهم جميعاً . . . على كل رجل في الحسينية . . . خربوا بيوتهم . . . اقتلوه قبل أن يقتلوني . . . سيثأرون لقتلهم ونسائهم . . . أسرعو . . . أسرعو . . . اقبضوا على شيخ المساجد . . . إنه مخيف . . . الشيخ أولا !

وكان دعاء الفجر قد جمع الرجال والفتيان في المساجد ، ولم يعد في الدور غير النساء والأطفال . . . ولم تكد الصلاة تنتهى حتى جلس شيخ المسجد على منصة يشرح للناس أمور الدين .

وجلسوا في خشوع حول الشيخ ، بينما انطلقت من أعمالهم عبر المسجد أفكار كثيرة تبحث في قلق عن خطايا المصير .

أورجالا منهم يحملون في القلوب جراحات مازال تدمى وتدمى . وهم لا يستطيعون أن ينصتوا لحديث في أمور الدين ، فان للفجائع التي عاينوها لدويا هائلا يهيم الأذان عن كل صوت ، ويحجب عن الميون كل نور : هذا رجل نهب حانوته منذ أسبوع ؛ لأنه لم يكن يملك الحلوى الشمبية التي طلبتها إحدى المحظيات في ساعة متأخرة من الليل . وهذا الآخر غابت ابنته يوماً في القصر ، وعندما عادت لم تكد ترفع رأسها تحت أقفال العار حتى سقطت ميتة . وهذا المعجوز الحزين في أقصى المسجد فقد لبنا في الثلاثين عاد إلى بيته بعد صلاة العشاء فسمع زوجته تستغيث من مخدعها .

ولم يكذب يميني لئلا يحسبني فوجي . بطعنة في الظهر من رجل محبتي . خلف ستار ، والجميع يعرفون من هو القاتل ومن هو الرجل الذي اقتحم المخدع وهذا التاجر الوقور ما زال يلعن اليوم الذي افتتح فيه متجره لعامة الشيوخ فقد شاء سيد القصر قبيل حجر لينة من الربيع أن يرى إحدى راقصات تلبس عمامة شيخ وهي ترقص عارية فأرسل أتباعه إلى حانوت العمام المخلوق لخطموه وجلبوا كل ما فيه وذاك الفتى الكسيف : إنه يخفي سر أخت قتلها !

وانطلق شيخ المسجد يشرح للناس أمور الدين في صوت حزين خاشع تشيع في نبراته مرارة مبهمة ولكن أحدهم قاطعه : د قل لنا يا سيدنا الشيخ .. ما رأيك فيما يجري ؟ ، فأطرق الشيخ قليلاً ثم أجاب في صوته الجليل وهو يهز رأسه وكل بدنه : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . . فصاح أحد الفتيان في بأس : ودمرناها تدميراً ؟ ؟ . . وما ذنبنا نحن يا سيدنا الشيخ ؟ ؟ . . وصاح فتى آخر : د أحمد أغا يدمرنا تدميراً .. والله أيضاً ؟ ؟ ، واشتعلت قلوب الفتيان بسخط عنيد ، ورفض لكل شيء . . .

وتهدج من أقصى المسجد صوت عجوز : د قل لنا ما العمل مع الوالى أحمد أغا وأتباعه يا سيدنا الشيخ ؟ .. وترددت أصوات من هنا وهناك : د ما العمل يا سيدنا الشيخ ؟ ، د ماذا نعمل ؟ . . .

وطوى الشيخ كتاب الدين . وانفجر يلعن المصلين جميعاً بلا استثناء .. واقفرت من أعماقه مرارة منحت صوته الجليل حرارة لاذعة ..

— يا عباد الله . . . أنتم وحدكم المسئولون عما يجري . ما العمل ؟

ألا تعرفون ما العمل؟ إن الوالى أحمد أغا يعاملكم كالأنعام . وهو معذور
 أننا لانسأل الذنب لما إذا كان ذنباً ، ولكننا نقاومه ونخطمه ! أنفهمون ؟
 لقد أطلع ضعفكم أحمد أغا على عصيان الله والفتك بكم . كان أول الأمر يخرج
 للناس فى الصلوات ، ولكنه اليوم يقضى كل وقته فى المعصية . لقد بدأ بتاجر
 منكم فسجنه لأنه رفض أن يهب شالا من الحرير لإحدى المحظيات . وسكت
 التأخير وسكتكم جميعاً فتقدم أحد خطوة إلى الإمام ونهب حانوت رجل
 صغير . وسكت الكبار . فأخذ ينهب الكبار . ينهب كل شيء : المال ،
 والحرية ، والعرض . واقتل أتباعه يصنعون مثله . وأصبح يقرب الرجال
 منه بقدر ما للسانهم من حظوة . وهكذا أصبحوا كباراً يتحكّمون لمجرد أنهم
 أزواج نساء جيالات متسامحات . ولا شيء . بعد !! . فاذا صنعتم أمام هذا
 الفساد يا أهل الحسينية ؟ سكتكم . ففسق الذين يسمنون فى الوحل بلسانكم ،
 ونهبوا أموالكم ، وأهدروا حرياتكم . وأصبح الصغير منكم أو الكبير
 لا يعرف أيعود إلى بيته أم يقبض عليه فى بعض الطريق ؟ ولا يعرف أيجد
 بيته مازال قائماً ، أم يجده حطاماً وأشلاء . وأنتم وحدكم الملمومون ، فأنكم
 لتعصون الله !! ألم يأمر الله عباده أن يدافعوا عن أموالهم وأعراضهم
 وحرياتهم ، فن مات منهم دون هذا فهو شهيد ؟ لقد حرصتم على الحياة وأية
 حياة . علام تحرص يا حسن ؟ وأنتم يا معلم عبد الله ؟ أتحرص على الهوان ؟
 وأنتم يا عبد الموجود : علام تحرص فى حياتك يا زنديق ؟ على الجوع ؟
 وأنتم يا شعبان ؟ وأنتم ؟ وأنتم ؟ وأنتم جميعاً : علام تحرصون ؟
 ذوقوا إذن وأنتم صاغرون . كلكم ساخط على نفسه ، وكلكم يلتظر رجلاً
 يبدأ الضربة فكلكم ذلك الرجل .

ولم يكد الشيخ ينتهى من حديثه حتى سعل ونهض من مجلسه إلى باب

المسجد وهو يحفف عرفه ودموعه . وتصايح الناس : « أفادكم الله ياسيدنا الشيخ ، . سنمزلك يا أحمد أغا ، . سنحطملك ، . الله يرحمك يا أحمد أغا ،

خرج كل واحد منهم إلى حانوته أو داره وفي الأعماق منه عملاق جبار يستطيع أن يخوض النار نفسها وهو يضحك .

وبعد قليل كانوا في الطريق إلى بيت الشيخ لبدأوا معه الجهاد الكبير ، فوجدوا رجال الشرطة الذين عاثوا في الحى فساداً يحاصرون البيت وقد اقتحم بعضهم الأبواب ليقبض على الشيخ .

وقذف الناس العزل بأجسادهم وأيديهم على سيوف رجال الشرطة ودارت المعركة حامية الوطيس خسرت فيها الشرطة خمسة من رجالها وهرب الباقون بينما امتلأ الميدان أمام باب الشيخ بأجساد الضحايا .

وأطرت الحسينية ، قليلاً تبكى ضحاياها ، ثم اندفعت من خلال الدموع والزئير . إلى الأزهر . وانضم الناس من بقية الأحياء إلى جموع الثائرين ، وأغلقت الدور والحوانيت . وخرجت النساء وراء الموكب يحملن قطع الأحجار والحديد والنحاس ، ويزودن الرجال بالعصي والخناجر والسكاكين ، وامتلات القاهرة كلها بالندير والوعيد . وأسرع العلماء فاجتمعوا بالناس .

وفي الأزهر قرر المجتمعون أن يعزلوا « الوالى أحمد أغا ، . ومضى أحد علماء الأزهر إلى إسماعيل بك يبلغه القرار . و « إسماعيل بك ، إذ ذاك هو الحاكم الأعلى الذى يعين الولاة على الأحياء والأقاليم . فرفض

«إسماعيل بك، أن يعزل أكبر أعوانه «أحمد أغا، إلا إذا عزل «الجداوى بك، شريكه فى حكم مصر — أكبر أنبأه أيضاً .

ونشاورت «القاهرة» ، ثم قررت أن تعزل الولاية جميعاً فكلهم يسرون فى الأحياء سيرة أحمد أغا فى «الحسينية» . غير أن «الجداوى بك» ، أحس أنه أن مطالبه القاهرة بهذا ، وعبثاً حاول «إسماعيل بك» أن يقنعه بالخضوع لما يريد أهل القاهرة ، فقد غادر قصره ساخطاً متوعداً .

انطلق صوت المؤذن يدعو «القاهرة» ، إلى صلاة فجر يوم جديد . وكانت «القاهرة» كلها مازالت مجمعة فى الأزهر ، بينما جلس الوالى فى حلقه معربة من رجاله ومحيطاته يشربون الخمر ويدخنون الحشيش . وقالت المحظية الأولى وهى تدنى كأسها من فم الوالى :

— مازال الفقراء والفلاحون مجتمعين فى الأزهر منذ أربعة أيام !

فابتسم زوجها وهو يقول : « سنقتلهم جميعاً اليوم . اليوم هو آخر حياتهم ! » . وطرب الوالى للفكرة ، فأسند رأسه على صدر الزوجة الثملة وقال : « ستمضى نحن الثلاثة . أنا وأنت وكبير الشرطة فقط ! » . فقالت الزوجة « أقتلوهم ، واسكن لا تقتربوا منهم . إن رائحتهم تزكم الأنوف والحشرات تطير من أجسادهم » ، وضحك الوالى السكران ، وقالت امرأة كبير الشرطة وهى تبعد عن فم «الشبك» المذهب وتنظر فى دخان الحشيش « خذونى معكم ، إنها فرجة لذيذة » .

وضحك الجميع ، ثم نهض الوالى ومعه الرجلان .

ومضت الجياد الثلاثة تققع بسنابكها أرض «القاهرة» ، الخاوية .

والوالى لا يخفى بحبه لهؤلاء الذين تظاهروا ضده : كيف يتوقعون ١٩ . وشاهد
الوالى طفلاً صغيراً أمام باب منزل ، فتوقف وسأله : لماذا تقف هكذا؟
وقبل أن يجيب الطفل اقتحمه بحصانه وضج التابعان بالضحك والدم
يسيل من فم الطفل الذى كان منذ لحظات يتشمع لشمع الفجر الجديد .
ورفع رئيس الشرطة جثة الغلام بسيفه ، وهو يتأمل بإعجاب قطع اللحم
البشرى التى أخذت تتناثر أمامه .

وكان أهل القاهرة قد فرغوا من صلاة الفجر وخرجت جموعهم إلى
قصر د إسماعيل بك ، ود الجدوى بك ، لتسمع رأيهما الأخير فى قرار
العزل

ورأى الوالى الجوع مقبلة عليه ففلاه فرح وحشى وجرد سيفه . . .
وكذلك فعل التابعان . . . واندفع أمامه التابع الأول — زوج المحظية
الأولى — وبقي رئيس الشرطة وراءه . .

* * *

ولم يكد التابع الأول يخوض زحام الناس بحصانه وهو يمضى على
أجساد حية ضارباً بسيفه عن يمين وعن شمال ، حتى انقضت عليه مئات
الأيدي بالصفعات والخناجر وقطع الحديد وسقط من فوق حصانه . . .
وتقدم رجل مجهول من الناس فركب الحصان ومضى على جثة التابع
الأمين . . . واندفع . . . واندفعت الصفوف تطوح بخناجرها فى الهواء على
الوالى وكبير الشرطة ، واستقرت عدة خناجر فى جسد رئيس الشرطة
فسقط على الأرض وتقدم رجل مجهول آخر فركب حصانه ومضى على
جثته . . . واندفع . . . واندفعت الجموع . . .

المالِك في قصره وأقنعهم بأن قصورهم نفسها مهددة بمثل ما حدث لقصر
الوالي ، أحد أغا ، وردت الرجفة إلى النفوس بعض التواضع ،
وحطمت كثيراً من الصلف والكبرياء ، واستقر الرأي على تنفيذ قرارات
الآزهر له . . .

ونزل د إسماعيل بك ، ومن ورائه الأمراء يستقبلون الثائرين في
أدب جم . . . وانحنى د إسماعيل بك ، ، ولم يكن من قبل لينحني ، وأعلن
أن الأمراء يوافقون على ما يراه الشعب . . .
وملل الناس مستبشرين . . .

ثم تقدم لعلماء الأزهر الذين كانوا في طليعة الثائرين وأشار إلى الوالي
الجديد على ، الحسينية ، ، وإلى ولاية الأحياء الأخرى ، وسألهم إن كانوا
يوافقون عليهم ، وكان الولاية جميعاً ينعنون !

* * *

وتقدم الولاية الجدد في خشوع وإذعان فقبلوا أيدي العلماء . . .
وقال إسماعيل بك : ، يا أسيادنا الشيوخ . . . لسنا حكاما ، وإنما
نحن عبيد فضلكم ! ،

وفي الحق أنهم في تلك اللحظات كانوا أطوع من العبيد . . .
وعاد الناس إلى بيوتهم راضين ففتحوا الحوانيت ونامت
القاهرة ، كأطيب ما تنام المدن الظافرة وقد التأمت في قلبها بعض
الجرافات . . .

* * *

وهادت د الحسينية ، إلى ركاب الحياة تعمل و تضحك و تنتظر ما يكون
من أمر الوالى الجديد
والفجر يلوح ا





أمكن هذا يارب ؟ . ولكنك ياسيدى النقيب لا تعرف أية آلام
أعانيها بلا أمل فى العزاء ! أنا أعرف كل ما يضطرم فى نفسك الرقيقة
الرحبة ياسيدى . . أنا أعرف آلامك أيتها الأميرة الطيبة القلب . . غير
أنى لست أعرف . . غير أنه لم يكل ، وترك الأفكار تحترق فى صدره .
وأطرفت هى برأسها الدقيق البديع ، وأخذت تصلح عند منبت شعرها
الأسود الجليل حافة الشال الحريرى الذى يستلقى على كتفها الشائقتين فى
ترف محشم . . ولم يطل هذا الصمت فقد باغته الضيق فانفجر يقول :
— أكان يجب أن تزوجى مراد بك ؟ . . أكان يجب إذن أن تكونى
أنت زوجة لـ هذا الرجل ؟ . .

وإذ ذاك رفعت على استحياء وجهها الناصع الراق ، . . وتهدت . .
وغشى وجهها ندم حزين يائس . . ثم قالت :

— أكان زواجى به حقاً خطيئة تستحق كل هذا العقاب ؟
أى عقاب معذب أن ندرك فجأة أن أجل أيام حياتنا لم تكن غير
أكذوبة ! . . إن قوى العالم جميعاً - حتى الموت نفسه - لا تستطيع أن
تدخل إلى نفوسنا شيئاً من عزاء أمام مثل هذه الصدمات !
عريضة . . . لكم أعجب أن تكون نفيسه زوجة لمراد بك :

— إننا لنعيش السنوات الطوال إلى جوار هذه الكائنات القوية
المتعجزة التى يصور لنا غرورنا الأثوى أننا قد امتلكنها على حين
لا سلطان لنا حتى على شهواتها . . . إننا لنعطىها كل حبنا وكل نفوسنا ،
ونظلمها من أعماقنا على حالنا من الأهواء والنزوات ، وعلى ضعفنا البشرى ،

ويختلط منا الانفعالات والأفكار والعرق والأحلام . . . وهكذا تمر بنا
الأيام والليالي . . . نكون قد قلنا كل شيء وصنعنا معاً كل شيء . . . ثم . .
يحدث فجأة شيء رهيب تلتفّض أمامنا حقيقة رهيبة كالصدمة : إننا لم نتحد
أبداً ، وأننا أنفقنا أجل أوقات العمر نزيف على أعصابنا السعادة والضحكات
والمتاع ، وإذا كل هذه الأشياء الرائعة التي ملأت بالنور والزهو والكبرياء
لم تكن غير تلفيق وخداع . . . أباطيل . . . أو هام ! ! أو هام ! وانكفات
على مقعدها ترسل الدموع . . فتتحرك في مقعده قليلا وقال في صوت
هادىء مشرق :

— وأنتك مع ذلك يا سيدتى لتلكين حياتك كلها . . وتلكين مستقبلك
على أية حال ! . . إننا نستطيع دائماً أن نجعل من غدنا أجمل لحظات العمر
— لا نتحدثى عن هذا بعد ! لست طفلة لتقول لى مثل هذا الكلام ! . .
ثم عادت تضع رأسها في يديها تبكى وتركها تبكى . . ولكنها صرخت من
أعماق مرارتها :

— أهو يصنع معها الآن نفس الأشياء التي كان يصنعها معى ؟ ! أهكذا
يشترونه بجسد امرأة ! هذه البجارية الأعجمية التي أمتلك عشرات من أمثالها
— من قال لك أنهم قد اشتروه بجارية ؟ ! . . إنك لطيفة القلب
يا سيدتى . .

ووثبت من مقعدها فارغة الصبر وهى تقول : ماذا إذن ؟ ،
ولكن لماذا تجزعين هكذا يا سيدتى ؟ . . إنك لتلكين الرحمة التي في
القلب ، والدم الذى في العروق ، وكل هذا يستطيع أن يصنع لك العزاء .
— العزاء ؟ . . ماذا تقول يا سيدى النقيب ؟ . . ألا ترى ؟ أنظر ماذا
يصنع هذا الرجل الذى منحته حياتى ، إنه ليخونها بلا رحمة . . لقد كنت

دائماً أرى من خلال صلفه و بطشه و حماقته إنساناً نبيلاً عذب النفس . . .

لم يكن أبداً هو ذلك الطاغية الذى كنت تصوره لى ، ولم يكن متوحشاً كما كان يجب أن يصور هو نفسه . . . كان يعرف الألم ، واللذة ، والاتفعال والدموع . . . حتى عندما كان يصنع الدموع للآخرين . . . وعندما أقبل الفرنسيون عرض نفسه للبوت ليحمى بلاده ، ولقد أحببته فى تلك الأيام أكثر من أى لحظة أخرى . . . وكنت ثغرة بزوجى الجسور ، حتى عندما هزم . . . ولكنه اليوم ؟ يا إلهى . . . أكنت حقاً مخدوعة إلى هذا الحد؟ . إنه اليوم . . . أنظر إلى أين ينحدر . . . إنه يتفق مع الفرنسيين لمجرد أنهم أهده جارية أعجمية شقراء ويلسى أنهم يحتلون بلاده .

— بلاده ؟ بلاده هو ؟ . . . متى كانت مصر بلاده يا سيدتى ؟ إنها لم تكن كذلك أبداً . . . ولقد قلت لك هذا ألف مرة ، ولكنك لا تفهمين يا سيدتى الأميرة . . .

إن كل ما يعنيه من هذه البلاد إنما هو أن يبرز من خيراتها ليعيش فى ترفه الوحشى الماسجن المستبد . . . فليقبل الفرنسيون أو الأتراك أو الانجليز أو الشياطين من وراء البحار البعيدة . . . إن كل هذا لا يعنى مراد بك أو غيره من الأمراء ما داموا يستطيعون فى النهاية أن يملأوا القصور بالجوارى ، وأن يشربوا الخمر الفاخرة ، ويأكلوا فى صحاف من فضة . . . إن أكداس الذهب — لا مصر — هى وطنهم ، وإنهم ليركعون على الوحل نفسه ليلتقطوا منه الذهب ! أفهمين — ألم يعرضوا حياتهم لخطر الموت وهم يقاومون الجيش الفرنسى ؟ . . . عند ما تخيلوا أن جيش الاحتلال سيحرمهم من بعض ما ينعمون به . . . على أنهم مع ذلك لم يعرضوا حياتهم لخطر ما . . . فعند ما أحرق الخطر ، نجوا بأنفسهم ،

وتركوا القاهرة تتلقى غارة الاحتلال وتقاوم سلطانه في كل نهار وليل ..
ولكنهم اليوم عند ما لوح لهم الجيش المحتل بالذهب أخذوا يشبهون
السلاح في وجه قوات الشعب ليحموا قوات الاحتلال ! أليس كذلك ؟
إنهم يحمون مصالحهم لا الوطن ..

يا سيدتي ! أنتحسين إذن أنهم يفكرون في حرية الشعب
وأقوات الشعب ؟

أليسوا هم الذين سلبوه القوت، وأرهقوه بالضرائب وملأوا السجون،
وسفكوا الدماء، وشبعوا نكالا وتعذيبا، إن هذه الحرية التي تحسبن أنهم
دافعوا عنها في حربهم مع نابليون لن تسكن هي حرية مصر وإنما كانت
حريتهم هم في أن يسرقوا طعام الجياع، ويبعثروا المال على الخمر والنساء .
حريتهم في أن يخنقوا الوطن ويستغلوا أبناءه كما يشاءون . وأن جيش
الاحتلال ليستطيع اليوم أن يحمي لهم هذه الحرية أضعاف ما يستطيعون
هم أنفسهم ، وهم من أجل ذلك يخنقون إلى الأذقان ليلعقوا حذاء المحتل،
وكان يذرع أرض الحجرة وهو يصيح ويغلي ويلوح بيديه تماماً كما لو كان
يخطب الناس . وفي تلك الأيام كانت القاهرة تضرب بلا انقطاع ، وتتلقى
الضربات وترنح لبعض الوقت ، ثم ترفع المول من جديد ، كان الرجال
والنساء يقيمون المتاريس ويسددون الطعنات إلى الجيش المحتل ويهونون
تحت الرصاص ، ويحاسبون الخونة . وقد تركوا البيوت وأقاموا على
ظهور الشوارع، ينامون، ويأكلون ويكافحون ، ويتبادلون حراسة المتاريس
وكانت القاهرة في تلك الأيام قد صنعت المدافع لأول مرة في تاريخها
الحديث . صنعها الشعب نفسه فأقام مصنعا للبارود وأنشأ مصنعا ليزوده
بالسلاح وكانت البيوت قد خلت من أواني النحاس وقطع الحديد ، فكل

شئ. يصهر ليصنع منه السلاح ولم تكن في كل القاهرة امرأة تزين بالحلى،
فقد تخلين جميعاً عن كل مالدن جميعاً من زينة ليكون ملكاً للثورة. كان
التجار يوزعون الطعام بلا ثمن على المحاربين، ولم يكن هناك تجار يكسبون
من بيع السلع فقد كانت الثورة هى التى تملك كل شئ. : الأعصاب، ونفوس
الأفراد، وما يقتنون. ومع ذلك فما زالت الثورة فى حاجة إلى مال ومضى
النقيب السيد عمر مكرم، إلى السيدة نفيسة المرادية يطلب منها مالا للثورة.

وكانت السيدة قد تعودت أن تمنح الثورات السابقة .. كثيراً من المال .
غير أنه وجدها متعبة القلب، تفكر فى زوجها الذى ارتضى فى أحضان
الفرنسيين لجأة، وتبحث وراء خيائته عن إغراء امرأة؟ ولم يكذب النقيب
يتنبهى من كلامه حتى وقفت السيدة فى صمت لا يفصح عن شئ. . . وجلل
السكون أبهاء القصر الضخم لبعض الوقت. . . ومن وراء الأسوار فى الطريق
الذى تملأه أشعة الشمس مختلطة بزحام الناس، كانت أصوات المعركة تهز
الأرض والسماء، وسكون القصر وتحرك النقيب متفرزاً كجواد يريد أن
ينطلق ثم قال فى رهبة: « أسمعين؟ » صرخات النساء تختلط بزئير
الرجال .. الكل فى واحد يضربون نفس الضربة من أجل التحرير، وكانت
الضجة تقترب من القصر وتصل إلى سمع السيدة، طلقات البارود مختلطة
بأصوات .. الإنسانية وأحست السيدة بأن هذا الزحام يجذبها فى قوة
لا تقاوم كشدة الجذب لتتموج مع هذا العباب البشرى .. ورأى
النقيب على وجهها ابتسامة تحاول أن تشيع .. فاستمر يقول :

— والنساء أيضاً.. النساء قبل الرجال يأسدن . كل امرأة تشعر فى
أعماقها بأنها يجب أن تعمل لتجعل طفلها يعيش .. ويعيش أسعد مما عاشت هى .
والعذارى يندفعن ليصنعن لأنفسهن غداً آمناً ممتعاً لا تروعه الدماء،

لا تقتله الحاجة ، ولا يفزعه القلق .. ومن هنا يا سيدتي يلبق العزاء ..
الراء الذى يخلق والذى يجعل مأساة حاضرتنا ليست غير زقاق مظلم مخيف
يجب أن نجتازة لنظفر بالفضاء والحرية والنور ! والضجيج ما زال يختلط
بشعاع النهار غارج أسوار القصر ويصل إلى سمع السيدة .. وأحست بقلبها
يدق ، وبأشياء متفاعلة تنبض فى كل بدننا الرخيص ، حتى لقد أوشكت أن
تنسى أن لها بدنًا ، ففى بعض اللحظات لا يكاد الإنسان يشعر بكيانه إلا
بأنه مجموعة أشياء متفاعلة ، وطاقات ! ..

ولجأة سألته السيدة : « أجئت تطلب مالا للتأثرين ؟ » فأجاب :
بالضبط ... »

ودخلت السيدة ثم عادت فأعطته صندوقا ... ثم خلعت كل ما على
جسدها من حلى وجواهر وهى تقول : لم يبق لى بعد شيء أعطيه غير
حديد القصر .. وإنكم لتستطيعون أن تأخذوا كل ما فى القصر من حديده
ونحاس لتصهروه فى مصانع السلاح !

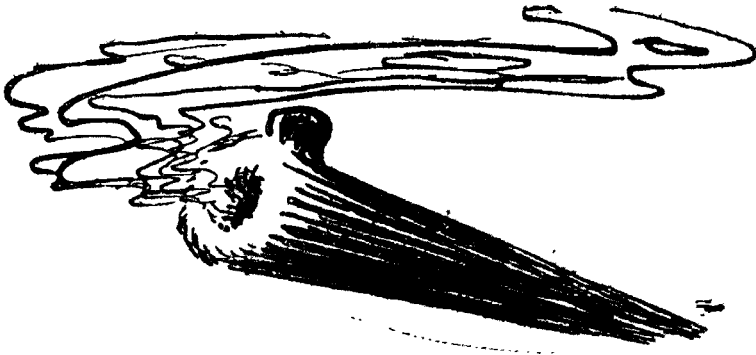
وتحرك النقيب عجلا إلى زحام التأثرين .. ولكنها استوقفته قائلة :

— أنتظر .. فما زال لى شيء أعطيه ! ودخلت بسرعة كالادوامة ..
ثم عادت ... عادت وقد ارتدت ثياب فارس ! ... واندفعت إلى
الباب تقول :

— فلندخل فى زحام الناس ! وغير بعيد من القصر كان النهار ما زال
ينبض باندفاع السواعد ..

وفى ذلك اليوم عرفت السيدة نفيسة كيف تخفى رأسها البديع وراء
المتاريس ، وكيف ترفعه لتطلق النار ... واختلط بدننا الرخص بنساء
أخريات من الشعب أبدانهن مهزولة عجفاء .. وعرفت كيف تزحف على

القرب ، وثقثقر ، وتنصب قوامها في الهواء ، وتندفع ، وتصبح مع
الصائحين ! وعند ما أخذت الشمس تلقى أشباح الغروب على قلوب الجيش
الفرنسي المتقهقر ، كانت السيدة نفيسة تعود إلى قصرها وقد أسودت يداها
بالبارود وعفر الدخان وجهها الناصع . . وعلى طول الطريق كانت تفكر
فيما يجب أن تصنعه في الثورة من غد ؟ وفي الحق أنها تعد متعبة القلب ،
فقد وجدت العزاء . . كانت تشعر في كل أرجاء نفسها بسعادة لم تعرفها
من قبل . . وتحس بنشوة من يقبل في حياته على أسعد أيام العمر !





غلام في المقاومة

أرمان . أرايته يا أرمان ؟ إنه لم يزل بعد في العاشرة من غمره . وهو شاحب هزيل تتفرع من على بدنه الجاف أطراف دقيقة كالعصى . ولو أنك أمسكت به لخفت أن يتشم في يدك كهود يابس من البرسيم . ومع ذلك يا صديق أرمان فإن في عينيه شعاعاً عجيباً ١ . يا إلهي إنك لا تستطيع أن تنظر إلى عينيه .

— لماذا تصوره لي هكذا كأنه خرافة تعبر إحدى الأساطير العامة بالحوارق والمعجزات ،

— وإنه لكذلك ، إن هذا الصبي المصري لمعجزة يا أرمان . وإنه ليحمل إلى نفسي ريحاً قديمة مشبعة بعطر القرون الغابرة ، وبذكريات من بطولتنا المقدسة ، ألا يذكرك هذا الفلاح الصغير بجان دارك ؟

— أجل أيها الآله . وسنخرقه كما أحرق الإنجليز جان دارك ١ ، كانت هي الأخرى ساذجة طاهرة فقيرة . غير أننا لن نترك هذا الغلام ليصبح د جان دارك ، أخرى أظن أن قائدك العزيز يصنع هذا ؟؟ إنه .. ولكن زميله قاطعه مبهوتاً

— أرمان . أجننت ؟ لا تتحدث هكذا عن القائد — وسكت د أرمان ، وأخذ يسرح طرفه في حقول الضعيف التي تستلقي تحت سفح الصحراء ؛ ثم قال : — لقد حدثني عن جان دارك ، والمعجزة ، إن المعجزة لتنبع من هؤلاء الذين نحصدهم بلا حساب — يا أندريه إن إرادة الحياة تجعلهم يصنعون أشياء تبدو لنا نحن خرافة ! نحن ؟ أية سخرية ! لقد صنعنا بدورنا أشياء خارقة هناك . ولكن الذين قتلوا د روبسير ، وأرادوا أن يقتلوا الشعب

الفرنسي خيل إليهم أنهم يستطيعون أن يقتلوا كل الشعوب ، ستحاكون
الغلام المصري اليوم ؟

حسننا أما أنا فلن أسمح بقتله أبداً أتعود مرة أخرى إلى عصور
الشهداء والقديسين ؟! ودهش أندريه فأقبل على صديقه هامساً : يجب أن
تكنم نزعاتك هذه يا مجنون ماذا تريد ؟ ألم يعطك مصرع دماراً ،
و دروبسبير ، وكل زعماء اليسار ؟

ولكن أرمان قال له كالهامس — أمكن هذا ؟ سنصبغ هذا الألق
كله بالدم ونزحم هذا الفضاء بالجثث من يرى يا عزيزي أندريه ، ربما
استقيت أنت أو أنا هنا في هذا المكان إلى آخر الزمان ، الرأس هناك
... والجسد ... من يعلم أيضاً لعله يصبح طعاماً لتاسيح النيل أو لعل قطعه
توزع بين النهر والوادي ولم يجب أندريه ، فقد شعر بانقباض مفاجئ
وظل أرمان ينظر إلى غير شيء . . وكانت أشعة ديسمبر الفاترة تملأ نفسه
بألم هادئ عميق وشرع يتمتم بأغنية قديمة حزينة من أغاني فرنسا وعلى
مقطع من الأغنية يصور المجاعة والبؤس ، أخذ د أرمان ، يهز رأسه ،
ثم قال لجأه :

— إنك لا تعرف يا أندريه أن لي هناك ولداً في العاشرة أيضاً .
— لشد ما أتمنى يا أرمان أن أعود إلى فرنسا لأنفق ما بقي لي من
العمر هادئ البال . ناعماً بالدفء بين زوجتي وأطفالي .. ولكنها الحرب !
لست وحدك يا أرمان . . إننا جميعاً نحن شوقاً إلى الزوجات والأطفال .
— وإلى متى يا أندريه هذا الاغتراب الممض ؟ .. إلى متى نحارب على
الرمال تحت وهج الشمس ، وفي عواصف الرمل ؟ لقد حدثونا أننا سنجد
هنا جنات نغتصبها من أهلها في يسر . . ولكن أنظر . . كم فقدنا هنا من
أصدقائنا ! إننا نقبل على القرية وهي آمنة ونحسبها ستركح تحت أقدامنا

قتلتا بالويلات ، ويصطف الرجال والنساء ، ليقتدونا بالسهام والسيوف
والصخور ، فاذا أعيتنا الحيل أحرقتا القرية على من فيها ، ومضينا إلى
غيرها لسفك الدماء وتلقي الضربات ! لماذا يحدث كل هذا يا صديق أندريه ؟
أهذه هي الحرية التي تنشر أعلامها في الأرض ..

— أرمان .. أسكت ..

ولم يكن أمام أرمان غير السكوت ، فقد أقبل جندي يدعو الضابطين
إلى مجلس القائد ليشهدا محاكمة الغلام المصري وفي خيمة القائد . وقف
الغلام المصري حافي القدم ، عارى الرأس ، ممزق الثياب .. وكانت ثيابه
المبهلة تكشف عن جسده البرنزي الأبحف أكثر مما تستر . ومن حول
الغلام وقف حراس عديدون وبنادقهم مصوبة إلى بدنه الضئيل ..

أما الغلام فقد كان من القرية التي رست السفن على شاطئها ، تحمل فرقة
من الجيش الفرنسي . وقد تعود منذ أيام وهو يلعب أمام مسجد القرية
أن يسمع الناس يتحدثون بعد الصلاة عن هذا الجيش الذي يزحف بلا
توقف ، ويرسل على المدن والقرى كسفا من نار .. ومن هذا المسجد سمع
أيضاً أن الأمراء الذين كانوا يحكمون البلاد ، قد هربوا بما يملكون من
ذهب ، وبما اغتصبوا من ماشية وقح وسمن ، وسلاح ، وكان الناس
يحمدون الله كثيراً لأنه خلاصهم من حكم الأمراء ، ويدعونه أن يخلصهم من
هذا الجيش الزاحف .. فسينزع منهم ما بقي لهم من طعام ! . وظلت تلك
القرية من « بنى سويف » تجتمع في المسجد لتدبر أمر السلاح .. فلم يكن في
القرية كلها بندقية واحدة وقد جمعت القرية كل ما لديها من قووس ومعاول
وسيوف وخناجر .. ولكن لا بد لكل رجل فيها من بندقية لتصد الفرنسيين
— وسأل الغلام أمه عن البندقية ، ماذا تكون ؟ فقالت له : « هي التي
قتل بها الأمير خالك في العام الماضي ! ، وعرفها الصغير ، فقد شاهد الأمير
ينادى خاله ذات صباح ويغظ له في القول ، وعند ما رفع خاله رأسه

ليتكلم صوب إليه الأمير قطعة داكنة من الخشب والحديد ، وغمرها فدوت منها فرقة بخيفة أزعجت القرية كلها . وانبعثت منها شعلة أحرقت رأس خاله ! — لكم تمنى الصغير أن يحمل هو الآخر هذا الشيء ذات يوم ليحرق به رأس الأمير — ولكن الأمير الذى هرب مع غيره من الأمراء ، حل معه كل ما يستطيع من بنادق ، والقرية تتوقع فى كل نهار وليل أن يباغتها الجيش الفرنسى بالهجوم .

وعاشت القرية أياما طوالا تصبح وتمسى ، وكل رجل فيها يفكر فى طريقة للحصول على بندقية .. وقد رأى الطفل حيرة أبيه وبات هو نفسه يعلم ببندقية فى الليل ، فاذا أقبل على رفاقه الصغار فى الصباح ظل يتحدث ، ويلعب ، وأمام سمليه تراقص صورة بندقية .. كبيرة بعرض الأفق ! وكان الجيش الفرنسى قد اتخذ معسكره على شاطئ النيل ، وقد علمته التجربة ألا يهاجم حتى يستكمل أهبطه .. فأقام فى انتظار مدد فى الطريق .. ويوما بعد يوم لم يعد الصغار فى القرية يلعبون أمام المسجد ، وإنما أخذوا هم أنفسهم يروون لبعضهم ماسمونه من الآباء والأخوة الكبار .. فهذا رجل أخذ ما عنده من حديد ونحاس ومضى به إلى حداد القرية ولكن الحداد لم يستطع أن يصنع له بندقية .. أما الآخر فقد أفلح معه الحداد ، ولكنه فى اللحظة الأخيرة أدرك أنه لا يعرف أين يوضع الرصاص .. وذات صباح قال الصغير لرفاقه دعوا لتفرج على الجيش .. وخرج الصغار إلى الشاطئ ليروا وجوه هؤلاء الجنود ، الذين أقبلوا من بعيد ليسرقوا منهم الطعام والأرض .. ثم انحدروا إلى المعسكر خفافا شاحبين كالثعالب الصغيرة ، حتى لاح لهم من بعيد جندى أشقر يذو ويروح بملابسه الزاهية ، ونياشينه تسطع تحت وهج الشمس ، وفى يده بندقية ! وعندما رآه الصغار ورأوا البندقية ، غمرهم شعور عجيب .. كالتقطوا من الأرض بعض الحصى وقذفوا

بها المعسكر .. ولم يصيبوا الجندي ، فقد كان أبعد من مرمى أيديهم الصغيرة غير أن الحصوات وقعت على مقربة منه ، فالتفت إليها وتحرك نحوهم .. وذعر الصغار ، فأسرعوا إلى القرية مهولين ، أما هو فلم يجر معهم وإنما سقط في مكانه واختفى بين أعواد القمح ، وظل يرقب الجندي وهو يروح ويغدو ، وقد صمم أن يعود إلى أبيه ومعه بندقية ..

وأخذ الصغير يزحف على الأرض حتى بلغ المعسكر .. واستدار وهو يزحف فأصبح أمام ظهر خيمة .. وهناك إلى جانب الخيمة شاهد بعض الجنود يتحدثون بلغة غريبة لم يسمها من قبل ، وهم يتطلعون إلى النيل . وقد طرحوا بنادقهم وراء ظهورهم على الأرض ... وإذ وجد الغلام نفسه آخر الأمر وحيداً أمام عدة بنادق ، إنحنى في خفه فالتقط واحدة .. وهم بأن يعود إلى أبيه ... غير أن البندقية لم تكن خفيفة على الإطلاق فجراها على الأرض ، واندفع بخطوات مثقلة ... إلى القرية — وشعر الجنود بصوت غريب فالتفتوا إلى الخلف وأبصروا الغلام يسحب البندقية ويحمرى إلى أول الطريق ... وأسرع أحدهم وراءه فلاحق به ، وحاول انتزاع البندقية من يده ، ولكن الغلام تشبث بها ، وكأنما تشنجت عليها يداه .. وأخيراً استرد البندقية ، وأخذ الغلام إلى القائد .. واصطحب معه الترجمان ... وعجب القائد لهذا الفتى الصغير ، الذي يوشك أن يخر على الأرض من فرط الجوع .. وعرض عليه القائد طعاماً فرفض قابلاً أنه لا يقبل طعاماً من هؤلاء الذين يحرقون المدن والقرى في مصر ، لأن طعامهم كله سموم ؟

وحاول القائد أن يعرف شيئاً من الغلام .. وظل يستدرجه ، ويفريه لعله أن يبوح بأسرار القرية ، ومدى استعدادها لمقاومة الجيش الزاحف ،

ولكن الصغير ظل صامئاً .. وكان دائماً يرسل من عينيه الضيقتين نظرات ثابتة تومض بالشرر .

وعقد له القائد في خيمته جلسة محاكمة فربما كان وراء تصرف الصغير تدير من كبار .. وسأله القائد : « لما صنعت هكذا ؟ »

ورماه الصغير بنظرته القاسية الملتهبة .. وطافت بذهنه صور المسجد واجتماع أهل القرية فيه ، وحيرتهم في البحث عن البنادق !
فأخذ يقلب نظره إلى البنادق في أيدي الجنود من حوله .. ولم يجب !
وقال له القائد « لا تخف : . لماذا صنعت هكذا ؟ »

فأجاب على الفور « أنا لا أخاف أحداً ... هذا أمر الله ،
فسأله القائد « من الذى أمرك بهذا ! قل من أمرك ،

فقال الصغير ببساطة « أمر الله ، وهمس « أندريه ، في أذن آرمان ،
« إنه يتحدث تماماً كجان دارك ، فعاد القائد يقول « قل الحق وإلا قتلك
من هو الذى أرسلك إلى هنا ؟

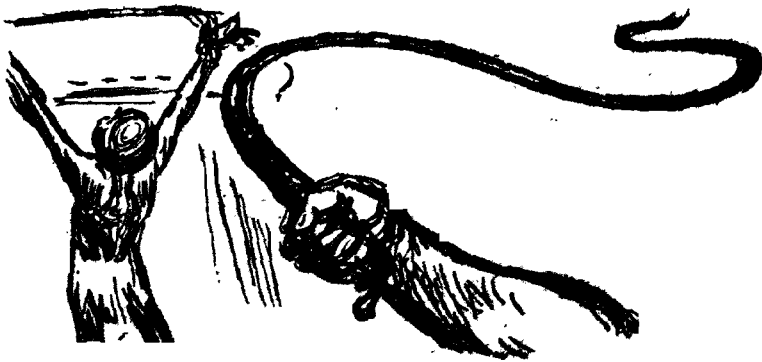
فأجاب الصغير هادئ النفس « إن رأسى بين يديك فخذها إذا شئت ،
ونظر الجنود إلى بعضهم ذاهنين والتفت القائد إلى من حوله وارتفعت
همة الدهشة من كل مكان واستمر الصغير يقول : « الله هو الذى أرسلنى
إلى هنا ... قلت لك ! ، ومال القائد على جاره قائلاً :

« لا فائدة .. سيكون خطيراً عند ما يكبر فلنقتله ؟ — وارتفع صوت
« آرمان ، حاسماً جزعاً : « لا .. لا تقتلوا صغيراً فى العاشرة لأنه يدافع
عن وطنه ... إننا لنتمنى أن يدافع أبناؤنا هناك عن الجمهورية ...
بمثل هذا الإصرار ! ،

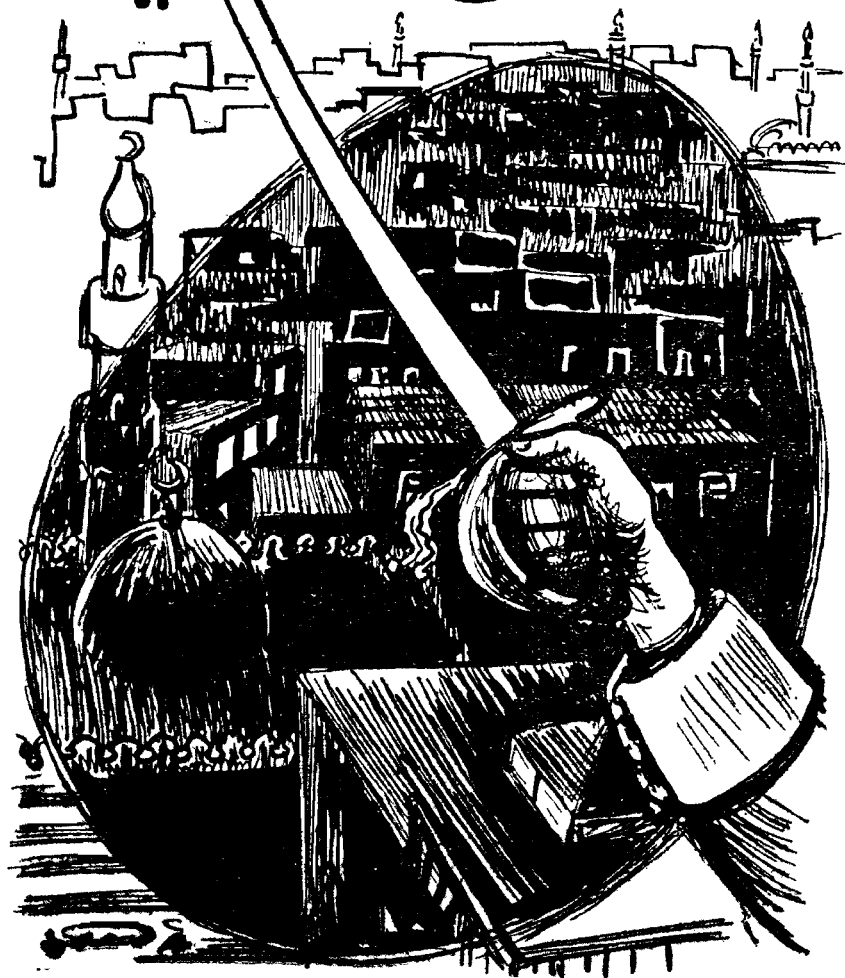
ونتمم أحدهم : « سنروى قصة هذا الغلام المصرى لأطفالنا فى فرنسا
ليكون مثلاً أمامهم : »

وقال ضابط آخر : سنخسر كثيراً لو قتلناه !

واصدر القائد حكمه على الصغير أن يجلد ثلاثين جلده — ووقفوا كلهم يشهدون التنفيذ .. أما آرمان، فقد أغمض عينيه ووضع أصابعه في أذنيه كيلا يرى ولا يسمع صرخات الصغير .. ولكن الصغير لم يصرخ على الإطلاق ... فقد ظل يكظم آلامه حتى حملوه إلى خارج المعسكر ... وعند ما مست قدماه أرض الحقول في الطريق إلى القرية شعر بمثل اللهب يشتعل في كل ساقيه .. ومضى متثاقلاً خطوة بعد خطوة وهو يخلف على الأرض في خطوه قطرات من الدم ... ولكنه لم يصرخ ! وإذا دخل القرية غلبته الدموع ثم استغرقه بكاء عميق ونشيج حاد ... لقد عاد إلى القرية وليس معه بندقية لآبيه .



عندما توداك كينة



— أسكت أنت يا شيخ .. أسكت قلت لك .. ليس من حقك أن
تتكلم اليوم يا شيخ مهدي
— يا مولانا .. أنا أقصد ..

— تقصد ماذا ؟ .. أنت لا تفهم شيئاً عما يجري الآن ، إذهب أنت
إذا شئت واركن تحت أقدامه واسأله المغفرة ... قل له كما قلت جميعاً
يا حامى الاسلام والمسلمين ! .. هو ؟ .. هذا الطاغية الذى أقبل من بلاد
بعيدة ليخنن فى هذه الأرض ويسفك فيها الدماء ؟ !

والتقط مسبحته التى وقعت على سجاد الغرفة ، وعاد يتمتم وهو
يحرك حباتها ، وكل بدنه يرتعش .. لم يغضب الشيخ السادات ، كما غضب
فى تلك الليلة ، ولقد رآه الذين من حوله ينظر إلى السماء ، ويدور فى
الغرفة ، ويطأطأ رأسه ، ثم يعود فيفتح صدره ويشمخ بجبينه ، وهو
لا يكاد يعرف ماذا يصنع ..

وكانت طلقات المدافع من خارج القصر تزلزل أركانه زلزلة هائلة ،
وينتهى إليه دويها الخفيف مختلطاً بصراخات الرعب وصياح النساء . فتسرع
أصابه بتحريك حبات المسبحة . وأقبل رجل من الخارج يقول فى
صوت كاللآلئ : « لقد سقطت بولاق ، والجرائق فى كل مكان ، وهم
يتقدمون ! »

وإذ ذاك قال الشيخ مهدي كأنما هو نفسه الذى يتقدم : « أنظر
يا مولانا ... أنظر .. ألم أقل لك ... أن كليبر سيبتلع القاهرة ؟ ... »

ستسقط تحت أقدامه بلا ريب . . . فلنتقدم نحن إليه إذن لتتجو
برؤوسنا . .

فنظر إليه الشيخ السادات في سخرية وهو يقول : « أما رأسك أنت
فلن تسقط يا شيخ مهدي . . إن الرؤوس التي تنحني لا تسقط عادة في
معركة الحرية . »

ودهم الحرج نفس « الشيخ مهدي » . . ورأى أمامه رجلاً متغطراً ،
ربما قتل بعد قليل ، وهو مع ذلك ما يزال يملك المقدزة على ازدراء السادة
الذين يزحفون . . فقال :

« — وبعد ! . . وبعد يا مولانا ؟ . . أنت لم تشأ من قبل أن ترسل
رجلاً منا يطلب معونة أمراء المماليك . . والآن . . »

فقاطعه الشيخ السادات محقاً : « معونة المماليك ! . أيها الشيخ الذي
دار الذهب برأسه . ماذا تقول ؟ ألم تصلك أنباء سادتك ؟ . ألم تعلم أن
كليب و مراد قد عقدآ بينهما موقفاً ، وأن مراد قد أصبح الآن أميراً على الوجه
القبلي تحت حكم مولاك كليب ؟ أو أن مراد الذي وقف معنا ذات يوم يحارب
الفرنسيين قد انتهى أمره وعاد كما كان عبداً لشهواته . فهو الذي أعان كليب ،
على حصار القاهرة ، وأرسل إليه الغلال والمؤن . لقد ظل المحروق التاجر
الوطني يبحث في كل مكان عن غلال يطعم بها أهل القاهرة ، ولكن مراد
كان قد حصل على كل شيء ، وأرسله إلى الجيش المحاصر . قل له يا سيد محروق
أية متاعب لقيت . وقل له شيئاً آخر . قل له بكم من الأموال ضحيت في
ثورتنا هذه ؟ . ألم تعرف هذه القصة يا شيخ مهدي ؟ . ولكنك مغلق
القاب ! . تعرف أن مرادا أرسل إلى كليب سفينة مملوءة بالمفرقات
ليحرق بها القاهرة ، ثم تحدثني بعد ذلك عن مراد ؟ لقد كانت

مراد يسومنا العذاب قبل هبوط الفرنسيين ، وعندما أقبلوا ، جمعنا في بيته يسألنا الرأي والنصيحة . لم تقل له شيئاً إذ ذاك : وتركتني أصرخ في أنه هو وغيره من الأمراء مسئولون عن هذا الزحف ، فقد طالما بطشوا بأهل مصر وزائريها على السواء ، وليس من الممكن أن تقاوم القاهرة زحف هذا الجيش ، بعد أن عاشت السنوات الطوال تحت وطأة الأمراء ، جائنة عارية معذبة . . . ليس فيها رجل واحد ترك له الأمراء قوة تمكنه من حل السلاح . . . أتذكر يا شيخ مهدي . . . أتذكر أيضاً عندما انصرفنا من عنده ماذا قلت لك ؟ . . . ألم أقل لك إننا يجب ألا نعتمد على هؤلاء الأمراء . . . أنهم يريدون حماية استغلالهم الوحشي لنا ، ولا يعنيهم من أى يد يلتقطون السوط الذى يلبس ظهورنا : من تركيا ، أو فرنسا ، أو الشيطان نفسه ؟ . . . ألم أقل لك أننا يجب على اسم الله ، أن نقف جميعاً في وجه هؤلاء الأمراء وفي وجه الفرنسيين ؟ . . . ولكنكم عندما سقطت القاهرة ، ظلمتم على اتصالكم بالأمراء ، حتى إذا انهزموا ولم يعد لهم بأس ، ركعتم تحت أقدام نابليون واشركتم معه في الديوان : أنتم كبار العلماء . . . لم يعضكم ما صنعه الصغار منا ، ولم تأخذوا العبرة من هؤلاء الشباب ، من العلماء الذين سقطوا في المعركة . . . ألا تزحف عليك أشباح الضحايا ، لتعلم وجهك الأشيب ؟ لقد تمتعتم بالاقصاحات ، وأعنيتم من الضرائب . . . مع ذلك فقد ظل الفقراء من العلماء ، بعيدين يحترقون ألماً ، ويرمقون في صبر مطلع فجر الحرية . . . أكلتم على مائدة نابليون ، وازددتم ثراء يوماً بعد يوم ، بينما كان رجل كالسيد المحروقي ، ينفق في إعداد الثورة بلا حساب . . . كان يسه قبل غزو الفرنسيين أن يدفع ثقلكم ذهاباً ، واليوم . . . إنك لا تعرف كم أفتق . وإن تفهم هذا ولكنكم لا تفطنون^٢

«ولكنك لست مسئولاً يا شيخ مهسدى ، أنها خطيئتنا نحن الذين
أشعلنا ثورة القاهرة الأولى . . لقد كان يجب أن نتخلص ، بضربة واحدة
منكم ، أبها المتعاونون ، ومن نابليون ، ومن الأمراء الماليك . . ولكننا
تركناكم ، وتركنا الأمراء .

« وهذا هو حصادنا اليوم ١ . أما الأمراء فقد باع كبيرهم نفسه لكبير
« ظلتم أنتم تخرجون على الناس كل يوم بكلام مرذول ، عن الهدوء والسكينة ،
وطاعة الله أتجرون إذن على ذكر طاعة الله ؟ ١ . أمن طاعة الله أيها الشيخ
الضال أن تسكتوا عن المفسدين في الأرض ؟ أم من طاعته أن تروا الحرمات
تستباح ، والأطفال يقتلون ، ، ثم يقبلون اليد الملوثة بالدماء ١ ؟ ما حكم
الله في الذي يقتل مئات النفوس البشرية ؟ أجب . ولكن ما أبعدكم عن
الله يا شيخ ١١ . . تحدثوا إذن إلى الناس كما تشامون فالناس يعرفون من أنتم
ويعرفون أنها هي هي المصلحة التي تنطقها الدين اصفوا جهادنا بأنه فتنه ،
وازعمو للمستضعفين في الأرض أن إدعائهم هو السكينة ١ ولكنك يا شيخ
مهدي أنت وزملاؤك لن تحذعوا الناس شيئاً . . لن تحذعوا إلا شياطينكم
التي في الصدور ومطامعكم في ملء الحبوب والبطون . . انصرف . . انصرف
يا شيخ . . فليس من حقه أن تجالس أمثال السيد المحروق والشيخ راضى
وهؤلاء الشيوخ الآخرين الذين أخلصوا الدين لله . . لا لكبير ١ ، . .

وانصرف « الشيخ مهدي . . وفي الصباح كان «كبير» يطوف على حصانه
شوارع القاهرة ، ومن ورائه أتباع مراد بك . . وفي طرق أخرى كان
الشيخ مهدي ومعه بعض العلماء يدعون الناس إلى الهدوء .

وفي الحين أن كل شيء كان قد هدأ . . ولقد تعثر الشيخ مهدي في ذلك
اليوم ، بالكثير من أشلاء الأطفال والنساء . . كانت القاهرة البديعة قد

استحالت إلى خرائب ، وكان الهواء ثقيلًا مشبعًا بعفونة الموتى . وكان
وحل الأرض قانيًا ، تتسائل عليه الدماء ..

ولم يكده المقام يستقر ، بكبير ، حتى استدعى أركان حربه ، وأمره
أوامره إلى الجنود ، أن يقبضوا على كل العلماء الذين اشتركوا في الثورة
أما الشيخ مهدي ، فلم يجد في هذا الإجراء شيئاً يعترض عليه ، لأن هؤلاء
العلماء حين رفعوا راية العصيان على «كبير» ، قد خالفوا أمر الله .. وأمر
الله منذ كان يسع كل شيء ، ويفهمه بعض الناس كما يشتهون .

ولم يلبس كبير أن يقبض على الشيخ «السادات» — ولقد أوصاه
«مراد بك» أن يقتله ؛ و «مراد بك» لا ينسى كيف أغلظ له الشيخ ، يوم
أن هجم الفرنسيون على القاهرة ، ولكن «كبير» نفسه لم يكن في حاجة إلى
من يذكره «بالشيخ» .. فقد كان من رأيه أن يقتل منذ ثورة القاهرة الأولى
غير أن ناليون لم يوافق .. فسيظل دمه في عنق الجيش الفرنسي إلى آخر
الزمان ، ولن يسكت الشعب عن الثأر أبداً ..



على أن «كبير» اعتقل ، والشيخ
السادات ، وألقاه في كهف سحيق
بالقلعة ، يشبه كهوف الباستيل ..
غير أن الذين حطموا الباستيل
بالأمس قد شاءوا أن يقيموا
للشعب الفرنسي نفسه ولغيره من
شعوب الأرض «باستيلا»
جديداً في كل مكان !

وانهال الجنود على الشيخ السادات ، بالضرب حتى لقد كان يفقد الشعور من ألم الضرب .. ولم يجد أحد من العلماء المتعاونين في هذا كله ما يخالف أمر الله .. لقد كانوا يناشدون الناس أن يخلدوا إلى الهدوء والسكينة ، وألا يوقفوا الفتنة النائمة .. فإذا يريد العلماء بعد ؟ إن الناس ليهذأون ، وكليبر يحكم آمناً الفتنة ، وقد استقر عرشه على البهاجم والاطلال .. وفرض على القاهرة غرامات فادحة ، ودفع بجار أثرياء كالسيد المحروقي أكثر مما يملكون ، وكسب الفرنسيون كثيراً من هذه الغرامات - والشيخ المهدي وغيره من العلماء نصيب مما يكسبون ا

وبينما كان الشيخ المهدي يكسب الذهب كيساً فوق كيس ، كان الجنود الفرنسيون يفدون على السادات فيضربونه ، فإذا أفاق جروه إلى داره ، حتى إذا اعتقلوا معه زوجته عادوا يضربونه ، حتى يسقط من الإعياء ، والزوجة تضرخ وتخمش وجهها .. والجنود يتضاككون .. والطيبون من العلماء يسألون الله أن يعفوا عن روحه الخاطئة ، وعن روح غيره من العلماء ، الذين ضلوا الطريق فقاوموا الفرنسيين .

ولم يطل عذاب الشيخ السادات ، فقد بدأت الفتنة تتحرك ، وأخذت الألقاض في دروب القاهرة تهمهم بالحق الذي يمسكه الرعب والجزع ا وأفرج عنه .. وأخذ كليبر يرسم المشروعات الواهمة لمصر .. بعد أن اطمأن به المقام ، وخيل إليه أنه مقيم بمصر إلى آخر الزمان ، فقد أخذ الناس إلى السكينة والهدوء ... ومضى الناس يحملون حياتهم في إذعان وصبر ..

ولم يكن في القاهرة كلها إذ ذاك رجل أو امرأة يستطيع أن يرفع صوته بالشكوى ، فأفواه القبور والسجون فاغرة ، تتأفف من بجاهر

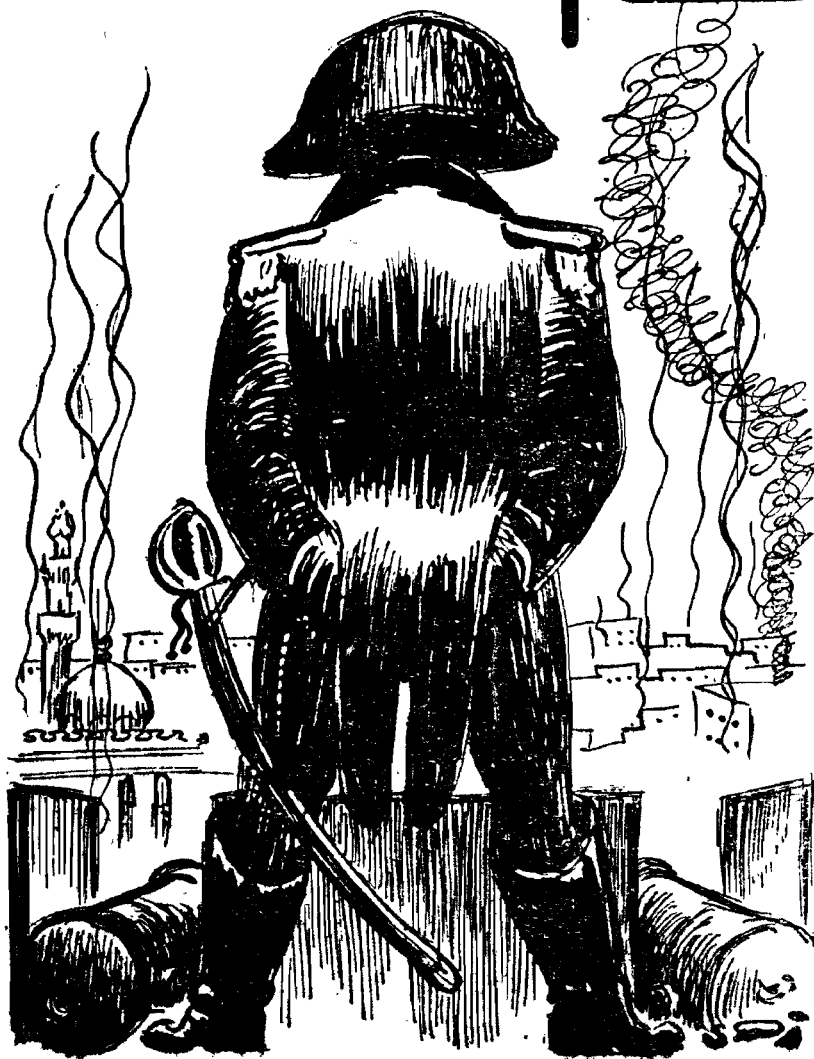
بالمصيان . . ومضى كليبر يحلم بمستقبل زاهر في مصر . . ولكنه وفي هذه
اللحظة بالذات سقط كليبر . . اغتاله سليمان الحلبي في حديقة قصر القيادة
العامة بالأزبكية !

أدفع كليبر رأسه ثمنا لاضطهاد شعب بأمره . . أدفعه ثمنا لتغذيب
الشيخ السادات . . !

ربما . . . غير أن العلماء المتعاونين إذ ذاك ، لم يعودوا يتحدثون عن
الهدوء والسكينة وعن أمر الله



قلاخلان



« اللعنة على المحتل . . . ليدو الرصاص تحت نوافذه
على الدوام ، فليزق الرعب بدنه ، فلتكن كل أيامه
جحما لا يطاق . . . »

« أسلحة ؟ . . . فلنقتصب الأسلحة من العدو . . .
هيا أيها الرماة الأحرار . . . طهروا أرض الوطن من
الخطوات المدنسة ، واقضوا باللعنات على المحتل ! »
« اراجون »

« دق الأرض بقدميه في غضب هائل وهو يصيح : « أن شرف الجمهورية
في خطر . . . »

« وحاول الرجال الذين لوح الذعر والتعب وجوههم الحمراء أن يعرفوا
ماذا بعد . . . غير أن قائدهم العظيم « كليبر » ظل يمشى في الغرفة صامتا . .
كان يضطرم حنقا ، وبدنه الفارع يتلوى ويرتعش بسخط خفيف وساد
المكان صمت متوتر فلم يعد أحد يسمع شيئا غير الأنفاس واللهثات !
ونجاء انطلق صوت أحد الرجال :

— فلنحرق هذه المدينة يا سيدي الجنرال !

« والتفت إليه « كليبر » بازدياء عميق يحمل كل مرارة حيرته المعذبة .
فالإنسانية في تلك الأيام من أواخر القرن الثامن عشر كانت تشتمز من
قتل الآمين الذين يرفعون رؤوسهم الحرة في وجه العدوان . وكان المعتدون
أنفسهم يرون في هذا التخريب وحشية لا تليق بشرفهم كعسكريين وفرسان .
ولم يجب « كليبر » بكلمة وظل ينظر إلى عيني الرجل الذي دهمه الخجل
فأخذ يفتح فمه وعيليه في ندم أبله . . .

وعاد « كليبر » يمشى مثقل الرأس وهو ينقل نظراته الخاطفة بين وجوه
الرجال . . . ثم ترك رجاله ينظرون إلى ظهره ، وأخذ هو يتأمل هذه المدينة
التي تستلقي أمامه بكل جلال القدم ، هادئة ، راسخة ، على الرغم من كل
شيء . كأنما هي تسخر عما يمر بها من أحداث !

إن الحياة لثمضى بها نعمة بذكريات تاريخ طويل ، متطلعة إلى أمل عريض
مهم ، وهى تغلى ، وتضطرب ، وتحدثم ، وتضحك .. وكأنها تنام ملء الجفون .
وتهامس الرجال لبعض الوقت ثم انطلق من بينهم دعاء صارم :
فلتقبض على كل الرجال .

والنفث « كبير » بنصف وجهه الذى أطفأ الشحوب نضرتة ، وقال فى
صوت حزين مدعنى :

كل الرجال ؟؟ لا ياسادة .. لا !

لقد كان يعلم أكثر من أى رجل آخر ، أية مدينة هذه .
أنها ما تزال تحتفظ فى عروقها بحرارة دماء الاسكندر ، وبكل بسالته .
وإنها تموت وتحيا ويجللها غبار النسيان . ولكنها لا تفقد هذه الحرارة أبداً !
وكان الحضارات قد خلقت لهذه المدينة تراثاً ضخماً ما يزال يرسب إلى اليوم
فى النخاع من بدن كل رجل ، وامرأة ، و غلام ، ليلهب منهم — عند
اللزوم — الصلف والكبرياء والعزيمة التى لا تقاوم . !

وهمس « كبير » مرة أخرى فى إذعان حزين :
كل الرجال ؟ لا . لا ياسادة ! إنه يعرف أى رجال هؤلاء . .
أيضا يعرفون ! .

لقد وقفوا منذ حين بصدورهم العارية ، حفاة ، مهالين ، وفى أيديهم
العصى ، والبنادق ، والفؤوس والسيوف والخنجر والسكاكين وقطع
الحديد . والاحجار ، ليقاوموا بهذا الخليط العجيب من الآلات . وحتى
بالأيدي — غزو الحملة الفرنسية لم تروع المدينة من المدافع التى أرهبت
الدنيا وراء البحر الأبيض ، واندفع كل أهلها إلى جحيم المعركة حتى النساء .
وكانت جبهته تحمل الدليل المؤلم على أن هذه المدينة التى تحرس الشاطئ .
الأفريقى ، ليست كالأخريات .. فقد أوشكت أن تلعب بمصيره الذى لم يهتز

في معركة أخرى من قبل ، والمعجزة وحدها هي التي ألقته من الموت !
والجميع يعرفون أن نسوة في المدينة قذفن القائد الباسل « ميتو » بحجر
ضخم فهوى من أعلى السور يتلوى من الألم وضلوعه تتمزق !
وفي معركة الاسكندرية أيضا مات الصديق الكريم الجنرال « ماس »
بعد أن كسب الفخار للجمهورية في ميادين أخرى من قبل . وقتل ثلاثمائة
آخرون من صفوة الضباط والجنود ، ولم يستطع « بوناپرت » أن يواجه
حكومته بالحقيقة فزعم أنهم ثلاثون ! .
والحقيقة أن الاسكندرية أصابت — في الصميم — سمعة الجيش
الفرنسي الذي ترتد منه كل مدن العالم بلا استثناء ! .
ماذا ؟ لقد أوشك « بوناپرت » نفسه أن يموت !

* * *

قد هبط الجنود إلى البر بعد أن خيل إليهم أن كل شيء هادئ في
المدينة . . لم يكن في الطرقات غير قرع الأحذية الثقيلة وكأن أهل المدينة
قد هجروها . وأغلقت الدور . . ولجأ أنهر من النوافذ طوفان من
الرصاص . . وكان نابليون يرمي في حارة ضيقة لا تكاد تتسع لشخصين ومن
ورائه حرسه ، والنار تنصب في عنف من إحدى النوافذ . . وسقط
بعض الحراس . . وأطلق نابليون الرصاص على النافذة ، وتبعه الحرس .
وبعد كفاح عنيف قصير تحطم باب المنزل ووجد الحراس رجلا وامرأة
ينزفان دما ، وهما يحاولان إلقاء آنية من الحديد الثقيل « الهون » على رأس
« نابليون » ولكن رصاص الحرس أفسد المحاولة . وهكذا استسلموا ولكن
للموت وحده ، ونجا « بوناپرت » ! .

إن « كلبير » — كفارس — يحتفظ في أعماقه بالإكبار لهذه المدينة
الرائعة البضلة ! . وهو بعد حائر لا يدرى على التحقيق ما يجب أن يكون !
أقبض على كل الرجال ؟ . . فسيفق النساء ، وأنهن ليحاربن بأعنف

بما حارب الصناديد في الجيوش المدربة . . ولوقبض على النساء فهناك
الصبيان . وهم أيضا يحملون السلاح ويحاربون بالطوب والاطفار ولوقبض
على الأطفال ، فمن يدرى ؟ ١٩ .

ربما تفجرت بالقذائف قفوس بشرية أخرى من أغوار هذه الصحراء
التي تنسط وراء المدينة بالخفاء والرعب والاسرار .

وتحس دكليب ، جبهته المشخنة بالجراح ، وتند . ليت د نابليون ،
لم يتركه في الاسكندرية إشفافاً عليه .

إنه يعاني متاعب لا يحتملها حاكم عسكري ! . . فالناس في الاسكندرية
لا يتعاملون — على أى نحو — مع الجيش المحتل . . وهو يتعذب في كل
نهار وليل ليحصل لجنوده على المال والطعام والماء . .

وعلى الرغم من أن د بونا برت ، قد عقد مع الزعماء — الذين غلبوا
على أمرهم — معاهدة شرف وصداقة وتعاون ، فما برح الناس ينظرون
إلى الجيش المحتل كجيش محتل غاصب ، ولا شيء بعد . لم يخدع الناس بما
أذيع عليهم من أن الفرنسيين أقبلوا ليطهروا الأرض من طغيان الأمراء
وفساد دولتهم . .

فصر تريد أن تطهر الأرض حقاً . . ولكن من البلاء المقيم والبلاء
الزاحف جميعاً . .

والشعب لا يعرف الجاملة ، فهو يشهر العداة واضحاً صارماً باتراً . .
و دكليب ، يصطلي من عداة الناس الذين قرروا أن يقاطعوا الجيش ، فنعوا
عنه الطعام والماء وحرموا التعامل معه ، وشرعوا يقتلون من يكسب المال
بالاتجار معه ، مصرياً كان أم أجنبياً من المقيمين في أرض مصر .

والجيش يتذمر ويتوجع ، ويتمنى جنوده أن يعودوا بسلام إلى وطنهم
الحبيب ليمارسوا في فرنسا حياة الحرية والأخاء والمساواة ، بعيداً عن

فطائع الحرب، وخرافات القادة والحاكين التي يسونها المجد والبطولة والفخار..
وفي ذلك اليوم من يوليو سنة ١٧٩٨ تلقى «كليب» صفتين قاسيتين ،
فأخذ يضطرم من الحرق والحيرة .. فقد عثر بعض رجاله على جثة بحار
فرنسي في عرض الطريق ، وفي نفس الوقت حملت أمواج البحر جثة جندي
موق بالحبال .

لقد أعلن الفرنسيون أكثر من مرة أنهم لم يدخلوا مصر ليفسدوا في
الأرض ويسفكوا فيها الدماء . وقد ساروا بين الناس أطيب السيرة عسى
أن تنشأ صلوات ومودات . فلماذا إذن يقتل المصريون رجلين فرنسيين ؟
وفي عصية بالغة صاح كليب في أعوانه :

— تكلموا يا سادة .. قولوا شيئاً على الأقل . أنت يا «برويس»
يا من تحسن سياسة الريح والأمواج وتسيطر على الحيتان في بجاهل الماء..
أليس لك رأى ؟ وأنت يا صديقي «مانسكور» . أنك لم تشهد مني مثل
هذه الحيرة في أيامنا القديمة الحرجة .. هل أفلس تفكيرك ؟ تكلم !
تكلم أنت يا كريتان .. وأنت ، وأنت .. ماذا ترون .. تكلموا يا سادة
قولوا شيئاً !

فقال كريتان في هدوء مفكر : « إنه السيد كريم حاكم المدينة . أنه رجل
واسع الحيلة شديد الذكاء .. خيف ! »

فقال كليب : « سأناقشه الحساب .. »

وأضاف مانسكور : « أرى أن تدعوا الأعيان للتحقيق معهم .. »
وقال برويس : « جنرال ! لا تنس القاضي الشرعي . ولتكن حلما معه
رحماً به .. لأنك عن طريق الدين وحده تستطيع أن تسيطر .. هذه هي
حكمة بونابرت ، وحكمتك أنت أيضاً .. »

فصاح «كليب» كن وجد الحل أخيراً : « هذا حقيق .. حقيق يا سادة سادعوم

جميعاً .. الحاكم والقاضى والأعيان .. سأناقشهم الحساب .. الحساب ! ،
وبعد لحظات كانوا مجتمعين عند د كبير ، . ودارت مناقشات طويلة
حادة ختمها د كبير ، بقراره الحاسم : أنه يعتقل الأعيان كرهائن حتى يقبض
حاكم المدينة على المسؤولين عن حادثى القتل . وألا فسيقتل اثنين من الأعيان
بختاران بالاقرار . . .

وقال د السيد كريم ، إن المسؤولين عن هذا الحادث هم أهل الاسكندرية
بأسرهم . . فليقبض إذن على كل الرجال وكل النساء . . . على أن المسئول
الأول هو كبير ، نفسه ، لأنه لم يحسن الإشراف على جنوده الذين انطلقوا
يستفزون مشاعر الناس !

ودهش د كبير ، لما يسمع من د السيد كريم ، . . وقبل أن يفرغ من
دهشته علم أن الشعب يتجمع في الخارج مطالباً برؤوس كثير من الفرنسيين
كان الناس يعلنون أن اجتماعا يعقد مع الحاكم العسكرى الفرنسى للتحقيق
في مقتل الرجلين . وحلت نوبات د يوليه ، الساخنة شرارة الغضب الكامن
من بيت إلى بيت وهي تزداد اشتعالا .. وخرج الجميع يحملون آلات القتال
ويعدون الذخائر من الصخور وقطع الحديد والسيوف والبارود . وملاؤا
أفواه الدروب والحارات والشوارع في انتظار نتيجة التحقيق ، لينقضوا
إذا لزم الأمر ! .

يجب الإفراج عن الأعيان ، ومنع الجنود من الاعتداء على الناس .
وتسليم الذين ارتكبوا حوادث سابقة وأفلتوا من عقاب الناس !
وليس في مقتل رجائين لإثنين شفاء لما في الصدور .

فن بين هؤلاء د الفرنجة ، الغاصبين من يعامل الناس كما لو كانوا عبيدا
في بعض عصور الرق الرومانية . . كل شيء مباح في مزرعة الرقيق : المال
والاعراض على السواء !

ما الذى يثير الحاكم العسكرى إذن ؟ فايؤدب رجاله أولا . . .
لقد اطلق أحد بحارته فاغتصب خمرًا من حانة مالطية عجوز ، ثم
سار فى الشارع يتطوح من السكر ، لحطم حانوت تاجر مصرى وسرق منه
عدة أشياء واعتدى على صاحب الحانوت وأوشك أن يقتله ، فقتله صاحب
الحانوت . . . ماذا فى هذا ؟

أما الآخر فقد تسلل — وسواد الليل يترشح — إلى خدر امرأة فى
مهمة خاصة ! كان خادما لضابط جميل . . . جميل ما فى ذلك ريب . . . ربما
كان يشغف النساء فى بلاده حباً . . . على أنه قد قن آخر الأمر بفتاة
مصرية تختزن فى عيذها وجسدها كل أسرار البحر والصحراء والآلهة !

* * *

وفى تلك الأيام لم يكن فى الاسكندرية نساء مصريات يرحن بالمحتلين
ولم يكن ذلك الزمان قد عرف بعد امرأة واحدة فى الاسكندرية أو فى
مصر كلها تستطيع أن تراقص ضابطاً أجنبياً ، أو تشرب معه الخمر ، أو حتى
تضاحكه مهما تكن مكانته أو قوته . . . كان هذا — وأيسر منه — هو العار
كل العار عند نساء ذلك الزمان !

وحق اللواتى طاردهن اللعنة كن يأتفن من الترفيه على الجنود والضباط
المحتلين . . . فهم أعداء ، قبل أن يكونوا رجالا . . . ؟ ولقد تموت إحدى
الشريدات من الجوع ، ومع ذلك ترفض فى أباء رائع عطاء أجنبياً .
وكان الفرنسيون يعرفون هذا جيداً ، ويدركون أن الأمر دائماً
— حتى عند نساء الطريق — يتعلق بالشرف المصرى !

غير أن فتاة مصرية دارت رأسها بفتنة الشاب الجميل ، وكان الجوع يخرس
منها كل صوت ، وللجوع أحياناً سلطان يتحدى الفضيلة ويسخر بالمعتقدات . .
وشعر الضابط بتأثير جماله على هذه الفتاة من أنصاف العذارى .

وكان يعرف أن المصريين يستجيبون لمغازلة الفرنسيين بضربة «قباب»
على الرأس . . .

فأرسل خادمه ليستدعى الفتاة . . . وبينما كان الخادم يتفاهم معها في
المكان المخصص للحريم شاهدها امرأة ، فصرخت وتجمع النساء ، وضربن
الفتاة حتى ماتت .. أما الجندي فقد أغشى عليه من أول ضربة «قباب» .
فأوثقت النسوة بالحبال ، وحملته إلى البحر وألقينه فيه ، يبحث لسيده
الجبل في الأعماق عن متاع آخر . . ليس من مصر على أية حال !
وهكذا مات غرقا .. !

لقد ظفر الناس بالمعتدين في المرتين ولكنهم مازالوا يذكرون حوادث
أخرى هرب فيها الجناة ..

فقد هاجم بعض البحارة بستانا لا حارس له فاعتصبوا ثماره ، وأتلفوه ..
وفي طريق مقفر اختطف أحد الجنود جرة ماء من فتاة متفتحة في
الراية عشرة ، واختطف منها في نفس الوقت قبة شرهة ، وشرعت الفتاة
أطفالها لتنشئها في رقبته وهي تصرخ ، ولكنها لم تكذب تجده رغبة .. قد
لاذ بالفرار وهو يحمل جرة الماء !

وقد شهدت أماكن الحريم جنوداً وضباطاً كثيرين هربوا ، وهم
بصرخون من وقوع القباقيب على رؤوسهم .. اختفوا — لسوء الحظ —
وهم أحياء !

إن الناس في الشوارع يتذكرون هذه القصص في سخط يخالطه النذير ،
وسيد كريم يذكرها « لكثير » .. وهو ينتظر وهم ينتظرون ..

لا نوم بعد . . .
« لكثير » مصمم على أن يسلم إليه الجناة المصريون . . والشعب في

الطرقات مصمم هو الآخر على أن يسلم إليه الأعيان ، والجناة الفرنسيون الذين أفلتوا . . ومصمم أكثر من أى شيء على أن يتعهد دكليب ، بعقاب من يعتدى على الناس فيما يقبل من الأيام . . حتى يقضى الشعب أمراً كان مفعولاً !

وفهم دكليب ، أنه لو سكب قطرة واحدة من الدم المصرى فإن الاسكندرية ستعلن الثورة !

واستمر الموقف على هذا التوتر الرهيب ثلاثة أيام سوياً وأقبل العربان من صحراء البحيرة فى اليوم الرابع بالخيول والإبل والسلاح . . ولم تبق إلا الكلبة . . كلبة واحدة ، وتشتعل . . !

إن دكليب ليعلم أن هذه المدينة ليست كالمدن ، ولو أنها اشتعلت فسيخوض معركة مريرة غير مأمونة ، بجنود مرهقين يهزم الحنين إلى الوطن وأحلام حياة آمنة مطمئنة تحت سماء فرنسا . . !

وأخيراً . . رأى دكليب ، أن الحيلة وحدها هى التى ستسعفه ، ليحفظ شرف الجمهورية ، وهيبة الجيش ، ويتفادى فى الوقت نفسه ثورة الاسكندرية .

فأمر بإجراء تحقيق عسكرى دقيق ليحدد مسئولية رجاله . . وبعد قليل أخطر القاضى الشرعى أن التحقيق العسكرى أثبت أن القتيلين قد بدءا بالعدوان . وهو كحاكم عسكرى مقتنع بأن القتل جزماء عادل لهما ، فالجروح قصاص ما فى ذلك ريب . غير أن ولى الأمر لا أحد غيره هو الذى يجب أن يتولى القصاص . . فإن تولى أحد غيره أمر القصاص فقد يجب على القاضى الشرعى أن يبيع دمه ويحكم عليه بالإعدام . . وفى مقابل هذا سيطلق سراح الأعيان . . . وهو مستعد لأن يعاقب المعتدين الذين يطالب الشعب برؤوسهم لو أمكن تحديد أسمائهم ، بيد أن

أحداً لن يستطيع هذا . . . وعلى أية حال فسينذر جنوده بأشد العقاب لو
تكرر منهم العدوان ١٠٠ واقتنع القاضى الله عى ، فأصدر حكماً — غيائياً —
بإعدام التاجر الذى قتل البحار . ولكن التاجر هرب . . أما قاتلات
الجندى الوسيط فلم يعاقبن لصعوبة التعرف عليهن !
ورضى الناس بما أَرْضى القاضى . . ألم يتبع « كليب » ، حكمة « نابليون » ،
بأن يكسب رجال الدين ليكسب الشعب ؟ ١٩

وأفرج عن الأعيان فاستقبلهم الشعب بالهتاف والتهليل ثم
انصرف إلى حياته اليومية من جديد . غير أن « كليب » ، مع هذا لم يكسب
الشعب !

لقد اضطرت قوة الشعب أن يأخذ جنوده بالعنف فأصدر إليهم منشوراً
— أذاع ترجمته على الشعب عن طريق القاضى الشرعى — يعلن فيه أن
الإعدام سيكون عقاب كل فرنسى يدخل المكان المخصص للنساء فى بيوت
المسلمين وكل من يتسلق بيتاً من البيوت ، أو يسرق ، أو ينتهك شعائر
الإسلام . أو يحاول صيد الحمام داخل المدينة . . . ١

وأذن الجنود لإنداز القائد فارتدعوا ... ولكن « كليب » ، مع هذا لم
يكسب الشعب ! ولأن هذا الشعب أمام هذه الترضية فقد ظل يعتبر الجنود
الفرنسيين ، محتلين غاصبين . .

● فلم تكد إحدى كتائب الجيش تمضى فى رحلة خارج الاسكندرية لتؤمن
المواصلات وطرق اتقوين ، حتى نأكد « كليب » ، أنه لن يستطيع أن
يكسب الشعب

ولم تجد المكتبة فى الاسكندرية قربة ماء واحدة ، ولم تجد دابة تستعين
بها على قطع الصحراء ، فقد اختفت الجمال لجأة . ولم تجد الحملة مصريراً يؤجر
دابة ولو بأضعاف ثمنها !

وما أوغلت الكتيبة في الصحراء حتى طالعتها بالرعب من جميع أقطارها ،
فالعرب يهاجمون على طول الطريق تحت الشمس المحرقة ، والقرى تغلق
الأبواب في وجه الغزاة وتصب عليهم الويلات ! وهكذا لا تستطيع
الحملة أن تظهر بلقمة من زاد أو قطرة ماء . . . وينتهي بها المطاف إلى
دمنهور ، لتجد ستة آلات نفس مصرية تحمل السلاح !

وتعود الكتيبة مضعضة القوى ، تن ، وتلهث ، وتلعن . . . وفي
الاعماق من رجل صوت يقول :

— أى شيء هذا الذى يدوخ أعظم جيش فى العالم ، وهو بعد فقير
مريض مهزول ، لا يكاد يقوى على حمل الأغلال .

لقد نسى هؤلاء الجنود أن شعبهم الفرنسى قد صنع معجزته . . وأن
الشعوب كلها تستطيع دائماً أن تصنع المعجزات
ذلك أن الشعوب لا تغلب على أمرها أبداً ، ما دامت مؤمنة بحقها فى
الحرية . . وفى الحياة .





التي الورقة على الأرض ، وسحقها بحذائه وهو يصيح : الخونة .. الخونة ..
الخونة .. لقد قبضوا الثمن .. ولكن الشعب يعرف أعداءه ، وإن يلسى
لهم هذا أبدأ ،

وسكت الجميع لحظة وهم ينظرون إلى وجه المنشنج .. وكأنما تعلق
المصائر بشفتيه .. ولكنه لم يقل شيئاً ..

وقال رجل : « هذا هو البيان الثاني الذي تصدره هذه الحفنة من العلماء
الخارجين على إجماع الشعب .. هذا كثير .. كثير جداً يا سيدنا النقيب ،
ولم يجب النقيب .. »

ولكن أزهرياً شاباً أجاب : « وقد يصدرون البيان الثالث والرابع
غداً أو بعد غد ، وشيوخنا الأجلاء يتحدثون عن صلاح نابليون وتقواه
وفهمه للدين ! من يدري ؟ ربما جعلوه أيضاً شيخاً للإسلام و ... »

وارتفع صوت عجز من أقصى المكان : « والشيخ السادات معتقل ، ومئات
الرؤوس المصرية تسقط برصاص الجيش المحتل ! إنه الذهب يا بني لقد
أعفاهم نابليون من الضرائب ، فهو ينال من البركات بقدر ما يمنح من المنفعة
لأنهم يباركون الدماء والمظالم والفساد والظغيان .. هؤلاء الخارجون عن
أمر الله .. وهم مع ذلك هم علماء الدين ! »

فأجابه صوت قبيح ساخر : « إنما يخشى الله من عباده العلماء ، .
فقال العجز متألماً : « أعتقد أن رجلاً نقذ نور العلم إلى قلبه يستطيع
أن يطالب المصريين بالاستكافة ، إلا إذا كانت الكلمات التي تتراكم في نفسه
أنوى من كل نور آخر ! » إن هؤلاء ليسوا من عباده العلماء ، فالعلماء حقاً

لم الذين يفودون النضال اليوم: أستاذنا النقيب ، وشيخنا السادات
والأحد عشر عالما الذين قتلهم الفرنسيون بالأمس .. إن الأزهر يا بني
لن يتخلّى عن دوره التاريخي أبداً .. وسيظل يحمل المشعل وينفذ أمر الله
في وجه المعتدين والخونة جميعاً ،

ثم نظر الجميع إلى «النقيب» وكان ما يزال صامتاً شاردأ ، وحذاؤه يهتز
فوق الورقة الملقاة على الأرض .. ولم يرفع (النقيب) رأسه عن الورقة التي
اختلطت بوحل الحذاء .. وظل يقول كأنما يناجي نفسه : (إنهم يخدمون
كل طاغية يدفع الثمن .. وهذا كان شأنهم مع الأمراء! إنهم يتهمون الثورة
بأن يبدأ أجنبية تحرّكها .. حسناً .. فهي يد الله، هي يد الشعب .. وهي يد
أجنبية عنهم حقاً .. وستخلص هذه اليد مضر المسكينة بضربة واحدة من
طغيان الفرنسيين والأمراء لمح)

ثم رفع (النقيب السيد عمر مكرم) رأسه وأخذ ينظر إلى وجوه الجميع
ركائماً أشرق وجهه العابس بنور عجيب .. ثم قال: (لم نخسر شيئاً يا أصدقائي
الميمت المالمطي الحائن الذي كان يبطش بنا وهو في خدمة الألفي ، وعاد
يبطش بنا كعبد للفرنسيين ١٩)

فأجابه الأزهرى الشاب : (نعم .. نعم ياسيدنا النقيب .. آه لو كنت
معنا منذ أيام في بركة الفيل .. ولكنك كنت تقود ثورة الغورية وكنا
نحن بلا قائد .. لقد أقبل يفسح الطريق على أجسادنا لسيد الجنزال
(ديبوى) وجنده ..

وكان يطلق رصاصه علينا بوحشيته المعروفة .. إن المالمطي وكيل المحافظ
كان يطمع ، على ما يبدو ، في منصب المحافظ .. ولكننا انتقضنا عليه ..
النساء من فوق المرتفعات يقذفن بالحجارة وقطع النحاس .. والرجال
بالحراب والخنجر والعصى .. وفي لحظات كان هو على الأرض مضرجا

بدمائه البخسة ومن بعده سيده الجنرال وعشرات من الجنود ()
فقاطعه النقيب متحمساً : (وعشرات من الحوة الذين لا يملكون في
هذا الوطن إلا المال ، والذين يبيعون كل شيء بالمال ، ويجرون وراء كل
من يمنح المال ...)

(ولكن اسمعوا يا أصدقائي : (إن الثورة لم تنته وإن هدأت ليمض
الوقت .. لا أمن للمحتل هنا .. أليست لكم قرى ؟ حاربوه إذن في كل
قرية ، وفي كل شبر من الأرض .. لن يغلبنا المحتل على أمرنا أبداً ..
زاد سيطر على القاهرة الآن كما سيطر على الاسكندرية من قبل .. ولكن
لتصنع القاهرة ، ولتصنع كل قرية في مصر كما صنعت الاسكندرية ..
لازد ولا ماء للمحتلين .. أذكروا ما حدث في الاسكندرية دائماً : المرأة
التي تحادث جندياً من المحتلين يجب أن تقتل . الرجل الذي يبيع الزاد لهم
يجب أن تحرق تجارته . وليهلك غرقاً من حمل قطرة ماء إلى أعداء الوطن !
إن لقمة الزاد أو قطرة الماء تمنحهم القوة ليستمروا في مظالمهم وعدوانهم !
أتفهمون ؟ أما هذه القلة القليلة من العلماء الذين يحاولون أن يضلوا الشعب
فا يضلون إلا أنفسهم .. إنهم لا يعرفون أن ما عند الشعب خير وأبقى ..
وأن يوم حسابهم قريب !)

وعصفت رياح نوفمبر في خارج بيت النقيب ، تحمل أنين المحزونين ،
وزفرات الغضب ، ودموعها تسيل على مئات الشهداء .

• • •

وطرق الباب قادم غريب ..
وأمسك الجميع أنفاسهم .. ولكن النقيب ، تقدم بمصباحه إلى الباب
بعد أن أمر ضيوفه أن يخفوا في بعض سراديب البيت ..
وقتح الباب .. فاندفع منه رجل يلهث !

ومس في أذن النقيب، بكلمات .. فقال له النقيب في رسوخ : ولحقهم
معهم بعض رجال . ومس في إذن الفتى الأزهرى ، وفي أذن الشيخ العجوز
واصرفت الجميع !

* * *

في الصباح كانت السفن الفرنسية تنحدر مع ماء النيل إلى فرغ رشيد ؛
ولم يخف الكابتن «جوليان» عجبهم . وهو يرى الرجال يعملون بهمة خارقة .
فقد كان يجب أن يمضى بسفنه منذ أيام إلى الاسكندرية يحمل رسالة
القوة المحتلة هناك . . . وكان في حاجة إلى ملاحين مصريين يبحرون الشراع !
ولقد أففق كثيراً من الجهد ، وبذل كثيراً جداً من المال ، ولكن رجلاً
واحداً من أهل بولاق لم يقبل أن يخدم السفن الفرنسية . والرجال القلائل
الذين حشدتهم السلطات الفرنسية ، وحشدت لهم الشيوخ ليعظوم بالطاعة
والامتثال . . . هؤلاء الرجال أمسكوا بلحى الرجال فرغوها في الأرض ،
ثم وثبوا — بلا سلاح — على الجنود الفرنسيين المسلحين يريدون تمزيقهم
بالأظافر !..

لقد يش «الكابتن جوليان» من العثور على ملاحين مصريين ولكنه
نجاة استقبل عشرات من الرجال يقبلون العمل معه باسمين . . . بأي أجر ..
وكانت شمس نوفمبر الدافئة تملأ الأفق الرحيب الساكن ، والجنود
الفرنسيون يتطلعون إلى الأرض الجرداء على الشاطئ ، ويتهايمون فيما
بينهم بأغنييت من فرنسا ، ويتذاكرون ثورتهم الكبرى التي صنعوها
وحطموها بها طغيان «البوربون» ، ليقفز على الاشلاء رجل «كنايلون» ،
يجعل بدل الإخاء والحرية والمساواة والسلام : هذه الحروب التي لا تكاد
تنتهى في القارة وعبر القارة !

وأخذوا ينظرون إلى الملاحين أصحاب الأجساد البرونزية . . . كانوا

هم أيضاً يتناشدون بأغنية حزينة من أغاني مصر . . وأحس الجميع لبعض الوقت أن ثمة أشياء مشتركة بينهم . . . أن شيئاً مجهولاً عميقاً يجمعهم ! ولكن الملاحين شعروا أن حائلاً ما يقف بينهم وبين هؤلاء الفرنسيين ، وشعر الجنود الفرنسيون هم أيضاً أن جداراً غليظاً غير إنساني يعزلهم عن هذه النفوس الإنسانية . لعل حائط أقامة نابليون ، وأحلام السيادة . . . وفي الحق أنهم يتمنون لو حطموا هذا الجدار الغليظ . . .

وتلاقت العيون لبعض الوقت . . وأومضت بالنور . . لماذا يقتل هذا الرجل الفرنسي ذلك الرجل المصرى . . لماذا أقبلوا من آخر الدنيا إلى أرض لا يعرفونها من قبل ليملأوها بدماء أهلها . . . ترنحت الرؤوس برقة الانسام التي تطرب المصرى والفرنسى على السواء . . . وتحركت الأيدي تمسح العرق الذي يسيل من كل الأجساد : الفرنسية والمصرية على السواء !

ولجأة امتلأت الأرض الجرداء بعديد من الناس من أهل القرى . . وعلى جانبي النيل وقف الأطفال ينظرون إلى الرجال الذين أقبلوا ليقتلوا آباءهم ، ووقفت النساء يحدقن في الذين انحدروا من وراء البحر ليجعلوهن أرامل . . . وتطلع الرجال إلى هؤلاء الجنود الذين قتلوا أخوة لهم في القاهرة وفي الاسكندرية ، والذين سيقتلونهم هم أيضاً !

ونظر الكابتن جوليان ، إلى جموع الفلاحين على الشاطئ . فصاح برجاله : « اطلقوا النار . . . ، وتلكأ الجنود لحظة . . . لماذا يطلقون النار ؟ . . . لقد أطلقوا النار أكثر مما ينبغي في كل مكان . . . وانهم ليتقززون اليوم من كثرة ما أسالوا من الدماء البشرية . . . أترام قد أقاموا الحرية هناك ليقتلوا الناس بلا حساب ، في بلاد بعيدة .

وأخذ الجنود ينظرون إلى الأطفال الصغار الذين يشيرون إلى البنادق
في ذقنة ، مروعة . . لقد تركوا في أرض الوطن أطفالاً كهؤلاء يروهم
منظر السلاح الذي يمزق جسد الإنسان .



وشاهد « الكابتن » جنوده ينظرون إلى الناس شاردين فصرخ في
غضب : « اطلقوا النار . . من يتأخر سيقتل »
وأطلق الجنود النار على الكتل البشرية المبكدة على الشاطئ .
وإذ ذاك توقف الملاحون المصريون ودس كل رجل يده في جيبيه ليخرج
قطعة من سلاح : بندقية أو سيفاً أو خنجرأ . .
وسدد أحد البحارة بندقيته إلى « جوليان » ، نحر صريعاً . . ثم
جرحوا بالسفينة إلى الشاطئ . . وعلى الشاطئ دارت المعركة . . وهجم
الفلاحون بالفؤوس والأحجار . . والجنود يطلقون الرصاص . .



وحملت الأنباء إلى نابليون وإلى السيد عمر مكرم — فقال نابليون
في غضب : « احرقوا هذه القرية . . سأبنى أمبراطوريتي هنا واو على
أنقاض هذا الشعب سأعرف كيف أخضع هذه البلد . . سأعرف »
وعند ما كان « نابليون » يقول هذا كانت انتفاضات الناس في القرى
تجيب بلا ضوضاء : « إن الثورة لن تموت »

أما السيد عمر مكرم فقد أطرق قليلاً يترحم على الشهداء . . وقلب
كفيه ، وارتفع وجهه إلى السماء مشرقاً بالنور مبلاً بالدمع وهو يقول :
« اللهم أن هذا هو ما أردت . . اللهم أننا لم نرد هذه الدماء . . اللهم أنك
أنت الحق وأنت السلام . . وما أردنا إلا الحق وما نريد إلا السلام . .

اللهم إنا لم نرد هذه الدماء ولكنهم يسرقون أوقاتنا ويحتلون أرضنا
ويقتصبون ديارنا ويفسدون ضمائر الضعفاء منا .. اللهم لا تعاقبنا بما فعل
السفهاء ، واعف عنا .. اللهم على اسمك نضرب ، وبك نهتدي حتى نظهر
الأرض الحرام .. اللهم إنا لم نرد هذه الدماء ، وما أردنا إلا الحق ،
.

ودوت في أعماق الشيخ أنغام مقدسة ، وأصبح لانعكاس الشموخ
على وجهه الخضل بحبات الدموع روعة القديسين في الزمان القديم ..
ومسح الشيخ وجهه ..
والشعب يضرب .. ثم يضرب ..



حکومت ذات‌لیبیست



لجأه . انتفض واقفا ، وتركها تنظر إليه في رعب وهو يلوح بسيفه ،
 ويصرخ في وجه الفارس الذي كان منحنيا أمامه في خضوع ورجفة :
 ولم تسكد الجارية الشائقة تدخل إلى مستقرها مع خريم القصر ، حتى
 كان صوت « البرديسي بك » يزلزل الجدران الشاهقة الموشاة بالذهب .
 إن « سيد القصر » غاضب منذ اليوم كما لم يفضب من قبل أبدا .
 والتصقت الجوارى والمحظيات بالأبواب يستمعن ، وقلوبهم تدق من
 خشية المجهول الذي يوشك أن ينقض . وبدأت إحداهن تجمع مجوهراتها
 لاهثة بينما أخذت الأخريات يصارعن الذعر الذي يجتاحهن . ودوى في
 كل أذن صياح سيد القصر : « يجب أن يدفعوا الضريبة . بأية وسيلة . ولتكن
 الضريبة لمدة ثلاثة أعوام لالعام واحد ، وسأرى ما يصنعون . إذهب ..
 إذهبوا .. إقطعوا لحوم هؤلاء الأوغاد .. » وقالت امرأة في القصر :
 « إن هؤلاء هم الذين سيقطعون لحومنا نحن .. » وأسرعت هي الأخرى تجمع
 من ثيابها وجواهرها .. وعلى مدى قريب من قصر « الناصرية » كان
 « هؤلاء الأوغاد » يملأون المساجد والطرقات .. أما النساء فقد صبغن
 الوجوه بالسواد وسرن يطمئن الحدود ويتطوحن كالتاديات وقد حملن قطعة
 من الخشب على هيئة نعش سمينا « البرديسي » . ومضى من خلفهن الغلمان
 وفي أيديهم الفضة قطع الحديد والحجارة والعصى . وكانوا يهتفون ويلعنون
 قائلين : إيش تاخذ من تفليسي يا برديسي والسيوف من وراء ذلك كله تلتمع في
 أيدي الرجال بينما الطبول تفرع والأعلام تحفق . وللزحام المختلط بالمرق
 والتراب رنين واحتدام ..

ما زالت هذه السيوف مطولة بالدماء ، وأنها لتطلب اليوم
دما جديداً .

على أن « البرديسي » حاكم مصر لم يكن يستطيع أن يقدر شيئاً كهذا...
ولكنه نسي .. ومثله دائماً ينسون ! ففي أعوام قلائل استطاع هؤلاء
الذين يتجمعون في الطرقات والمساجد — استطاعوا أن يصنعوا أكثر من
معجزة ! طردوا « نابليون » وأرسلوه في شراع ممزق يضطرب في بحران
أحلام الإمبراطورية !

وبطشوا بثلاثة من الولاة الأتراك واحداً بعد واحد .. ثم اختاروا
لأول مرة في تاريخهم — الحكومة التي تدير شئونهم ولقد ارتضوا .
« البرديسي » حاكماً عليهم ، وارتضوا « محمد علي » شريكاً له فلماذا إذن
يتذكرون اليوم ١٩ . أمن أجل الضرائب الجديدة ؟؟ إن الحكومة حين
قررت هذه الضرائب كانت تقدر أن أهل القاهرة سيدعون لما تأمر به .
أليست هي الحكومة التي اختارها الشعب ١٩ ؟

غير أن التجار أغلقوا حوانيتهم وامتنعوا عن دفع الضريبة ثم مضوا
يتشاكرون على بعضهم من وطأة الغلاء وخيبة الآمال العريضة في الحكومة
التي اختاروها .. وأخذوا يتذكرون قصصاً عجيبه عن إسراف السادة
وعن ترفهم المتوحش المستبد ، وعن الجوارى اللواتي يسبحن في الحظر
ويلعبن بالذهب .

إن الفساد القديم لم يتغير كما ينبغي :

وانتشرت بين الناس فجأة حكايات لا تنتهي عن هذا الرجل أو ذاك
من أتباع الحاكم أو أصدقائه : الانتجار بالآقوات بينما الأسعار ترتفع في
جنون ! وفي الوقت الذي تتمتع فيه طائفة قليلة جداً من أهالي القاهرة بالغنى
الفاجر الفاحش إذا بالناس جميعاً يتمرغون في الوحل والجوع والمأساة !

وهكذا تجمع الناس في مداخل الدروب . . وانضمت جماعاتهم إلى بعضها وقد صمموا ألا يدفعوا للحاكم بعد اليوم شيئاً على الإطلاق فكفاهم ما دفعوه ، وقد آن لهم أن يأخذوا .

ولكن جياة الضرائب يغلظون للناس فيقبض الناس على بعض هؤلاء الجبابة . . ويعود جياة آخرون ومعهم الفرسان ، فيثب الناس على الجبابة والفرسان جميعاً كل هذا حدث في ساعات قلائل والبرديسى بك في مقره الباذخ بالناصرية يعب الخرم من كف جارية كالممر . . ولا تكاد الأخبار تصل إليه حتى يمتلئ حنقاً . . ويفرغ من الخمر والنساء بعض الوقت ليصدر أوامره المشددة بقتل كل من يمتنع عن دفع الضريبة .

ولكن الأنبياء ترد إليه من أهل القاهرة وبدأوا يقتلون جياة الضرائب فيأمر باستدعاء شريكه في الحكم ليرى معه رأياً في أمر هؤلاء الناس . . وشريكه في الحكم رجل واسع الحيلة شديد الدهاء ، . أنه « محمد علي » ! ولكن « البرديسى » لم يكن يستطيع أن يظفر « بمحمد علي » في تلك اللحظات ولا حتى أحد جنوده .

فقد كان « محمد علي » يعرف جيداً إلى أين يمكن أن تمضى القاهرة حين ثور ولقد علمته التجربة أن الذين يذكون الغضب في نفوس أهل مصر لا يجب أن يقاوموا هذا الغضب من بعد ، لأنهم إذن سيكونون وقوداً للنار التي لا ترحم حين تشتعل . .

وهو من أجل ذلك لم يحاول أن يقاوم مشاعر الناس . . بل على النقيض أمر جنوده أن ينضموا إلى الشعب ، وأن يعلنوا الثورة هم أيضاً على « البرديسى » استنكاراً للضريبة الجديدة التي ترهق أبناء مصر .

واختلط هو بزحام الناس حتى أصبح واحداً منهم ، والتع سيفه مع السيوف . .

وعاد « البرديسى » يزأر فى قصر « الناصرية » ويرسل الوعيد والنكير
ومس فى أذنه شيخ عجوز أن يأخذ العبرة من « محمد على » ، ويدعن لإرادة
الشعب ويلغى هذه الضريبة الجديدة ويصنع شيئاً عاجلاً للقضاء على الغلاء
ولكنه فى صلفه الثائر لطم ناصحه الشيخ ، وقال أنه يعرف أن محمد على
يعمل لحساب نفسه لا لحساب هؤلاء الثائرين . . ثم أصدر أوامره إلى
أمراء الممالك أن يجرّدوا فرسانهم ليضربوا أهل القاهرة فى البيوت . .
والمساجد ، ولكن مساجد الله وبيوت الناس كانت قد دخلت من الناس .
وتدافعت أمواجهم البشرية الهائلة فى الشوارع منطلقة إلى مقر الحاكم .
والأنباء تصل إلى « البرديسى بك » كقرعات مطرقة حديدية على
رأس صغير .

لقد اقتحم الناس قصور أربعة من أمراء الممالك وقتلوهم ونهبوا ديارهم
وقصر « ابراهيم بك » ببركة الفيل محاصر . .
والمعركة تدور على أسوار القصر . . غير أن المهاجمين يتقدمون . .
وأخيراً هرب الطاغية الرهيب « ابراهيم بك » ، ناجياً برأسه ، عندما
رأى الجموع تحتاز مدخل القصر مقبلة عليه ، .
وإذ ذاك صرخ « البرديسى بك » ، من فرط الهلع وأسرع - كحظياته -
متعزراً على سجاجيد القصر يبحث عما يحمله من جواهر ويلوذ بالفرار ...
ولم يعد فى كل القصور إذ ذاك رجل أو امرأة يستطيع أن يرسل
ابتسامة أو يمسك صيحة الرعب . . ولم يعد أحد يفكر فى غير النجاة . .
لقل ذهل كل امرئ عن أخيه ونسائه وبنيه . . . وإن قضاء الشعب
ليطارد الجميع !

واستقر « البرديسى بك » ، فى قصر آخر بعيد . . بمصر القديمة . . ومن
هناك بدأ يدير المعركة . . . وظل جنود الممالك ساعات متوالية يصبون

الدمار على القاهرة من مدافع القلعة والأزبكية .. وأهل القاهرة يتقدمون
ويقتحمون النار ..

ووصلت فرقة من الثائرين إلى مصر القديمة على الرغم من كل شيء ..
ولكنها لم تستطع أن تظفر بالبرديسي ، ولم يكن في الإمكان أن تظفر
به ، فقد هرب إلى حلوان ، ثم أختفى في الصحراء إلى آخر الزمان ، حيث
يصبح ويمسى جزءاً تاماً أخرس من ظلمات النسيان .

ولجأة سككت أصوات المدافع وارتفعت زغاريد النساء
وكان الظلام يغمر القاهرة في تلك الليلة من مارس سنة ١٨٠٤ ، غير
أن السواعد التي كانت تهتز بالبنادق والسيوف منذ لحظات أخذت تخفق
بالمشاعل والأضواء .

في تلك الليلة ظلت القاهرة ترقص وتغنى على ضوء المشاعل الحمراء ..
وشهدت بركة الفيل ، أولى الضحكات الخاصة الصادرة ..
وفي الصباح كان كل رجل وامرأة ينظر إلى الآخر في إكبار ..
وأمل مطمئن ..

لقد صنعوا شيئاً ذات ليلة .. وسيصنعون غداً شيئاً .. وهم يستطيعون
أن يصنعوا كل شيء على الدوام !



محمدي



اننا ايضا معركة

إلى أين تمضي بهم حياتهم، هذه القلعة المضطربة ، المنعمة بالسأم والروع
والفراغ العريض . . . ؟

لماذا يعيشون . . . لماذا يقفون هكذا وراء المتاريس كأشباح فارقتها
الظلال ، في انتظار المجهول الذي سينقض ، والذي لا ينقض ؟
أن الحزب مشغولة منذ أمد بعيد بين أمراء القاهرة وأمراء الصعيد ..
ولكن ما شأنهم ؟

لقد سخر بهم الباشا الوالى عندما أخرجهم من دورهم ليدفعوا عن
القاهرة عدوان أمراء الصعيد . . . أية د قاهرة ، هذه التى سيدافعون عنها ؟
أنها لتسخر بهم فى كل نهار وليل ، وتطحن حياتهم بلا رحمة . . أترام
يدافعون عن أمرائها الذين جعلوا الحياة شاحبة كالموت ، خائفة كالفقير ،
زرية كالعار ؟

وتطمى رجل من أهل د بولاق ، وهو يستند إلى زميله وينظر إلى
المتاريس بضيق كبير ، ثم قال : د ضحك علينا الباشا التركى ا . . . كان صوته
جافا مذعنا هامسا ، وكان مطرق الرأس . وتطلعت إليه كل الوجوه التى
لفحتها شمس الصيف ، وأشرق على السمرة القائمة السكتية نور غريب . .
وصاح رجل آخر من ركن بعيد : د لئنا هنا للدافع عن الأمراء ، وربما
كانوا هم وأتباعهم يقتحمون بيوتنا . . . ويتهكون أعراضنا ،
وسرت فى الأعماق من كل رجل دممة خائفة . .

وكانت الشمس ما زالت تسطع فى السماء بوهجها الحارق ، وتزهق الأنفاس ،
ورفع بعض الرجال أكامهم لمسحون من فوق الجباه قطرات من العرق
الذى كان يركد برائحته فى الهواء . والنيل يمتد من بعيد صامتا بلا حركة ،
كحياة مفرغة لا يعلم أحد أين بدأت ولا كيف تنتهى ا .

وهمس رجل فى أذن زميله : د ماذا صنعت بأختك ؟ ، فأجاب بصرامة :
د قتلناها فى الفارس الشركسى ، وأجاب به رجل كان يسمع الحديث :

، الفارس؟! أنه من أعز أصدقاء الأمير و . . . وقاطعة الأول : شرفت ، رفعت رؤوسنا يا شيخ العرب . . عاش الخماس يا رجال ! . . وأطبق الصمت على الجميع وكأن كل رجل يفكر فى مشكلة عميقة ! .

وقال كهل كان ينظر فى الفضاء العريض : « اسمعوا يا أولاد . لقد نبينا من هذه الحال . . لنا ثلاثة أيام ونحن غائبون عن بيوتنا . ما لنا نحن وهذه الحرب ؟ ليدخل مراد بك وأعوانه القاهرة أو فلينتصر إسماعيل بك ويحتفظ بهذا البلد ، فما لنا نحن ؟ . . »

فجاوبه شاب متحمس : أى والله . . إسماعيل بك مراد بك يتحاربان على الأراضى والجوارى والقصور والسلطة ، فما دخلنا نحن ؟ . سأعود إلى دارى . . وذهتف رجل : « انعد كلنا إلى دورنا . . وشقت الأصوات العديدة ذلك الصمت المصبوب ، والكل يقول : « ل نرجع إلى البيوت » .

. . .

وفى الحق أن أهل القاهرة والصعيد جميعا كانوا قد تعبوا من الحرب . ففى ليست حربهم ، وهى لن تحقق لهم شيئا على الإطلاق . . والجيوش تستولى على كل شيء : على الدواب ، والطامام والأرزاق . . وحتى النفوس البشرية ! . وعلى الرغم من الخراب الذى أخذ ينشب أظفاره فى كل معالم الحياة والأحياء ، فما زال « مراد بك » ينشر الرعب فى القاهرة .

والجيوش تحتشد هنا وهناك ، وتلتقى فى بعض الطريق ، فتهدى الرؤوس تحت سنايك الخيل وتسقط الإنسانية مفتوحة البطن على التراب ، وتختلط أحشاء الرجال بطين الأرض وتخرّب الحقول ، وتنهب الدور ، وتهدر الحرمات . . ثم يبدأ الفريقان لبعض الوقت . . وبعد حين يعاودان صناعة المأسلة من جديد ! .

وفى مثل هذه الحرب يهدر كل ما هو إنسانى : الحياة ، والكرامة ، والحقوق على السواء ! وقد عرف أهل القاهرة فى تلك الحرب ألواناً من

النكال .. هاجم المعسكرون في بولاق كل حوانيت الحى ، وكل الدور ،
واغتصبوا النساء ، وفتكوا بالفتيات الصغيرات ، وسرقوا كل ما استطاعوا ..
وشكا أهل بولاق إلى الباشا التركى ، فقال لهم : « سأعاقب المعتدين ..
ولكنها الحرب ! .. ولم يعاقب أحداً .. لأنها الحرب :

وتشاجر فارس شركسى مع فتى من باب الشعرية . فضربه الشاب
المصرى وطرده من الحى . وعاد الفارس يقود عشرة من الجنود فداهموا
الحوانيت وحطوا بعض ما فيها ، وسرقوا ما وصل إلى أيديهم .. وهب
رجال الحى فانهالوا على الجنود ضرا بالسكاكين والعصى .. ولذا الجنود
بالفرار وهم مشخون بالجراح .. وكبر على الفارس أن يحدث كل هذا فعاد
مضطجعا ثلاثة من كبار رجال الشرطة فقبضوا على الفى المصرى .. وقاومت
أمه بكل ما تستطيع أم أن تحمى به وحيدها .. وأحق الرجال ، فقتلوا
الفتى الوحيد أمام عيني أمه الواحدة .. واختفوا جميعا تاركين وراءهم امرأة
تعوى ، وتقبل في جزع مجنون كل ما يبق من وحيد مات : دمه وجثته الباردة ..
ونارت « باب الشعرية » ، وطالبت دماء القتيل بحقوق الدم .. ولكن
« الباشا التركى » اعتذر للناس قائلا : « إنها الحرب ! »

وفى الحرب تهون الدماء ، وتفقد الحياة قيمتها العليا ، ويصبح الإنسان
— هذا الكائن الجليل ذو المقدرة الشاسعة — مجرد حشرة تسحق في صمت
وبلا مبالاة !

* * *

غير أن « الباشا التركى » كان سعيداً حقاً بهذه الحرب .. فلو أن أمراء
الممالك عقدوا فيما بينهم الصلح لواجهوه مجتمعين بمتاعب لا قبل لها بها ..
وهو ما زال يوقظ الفتنة بين الطرفين .. ويؤلب أمراء القاهرة على
أمراء الصعيد الذين أعلنوا العصيان على الوالى التركى ، وبسطوا سيطرتهم

على كثير من البلاد، وقطعوا الطريق على القاهرة وأخذوا يهددونهم بالغزو ما بين يوم وآخر ..

ولم يعد الصعيد يرسل الغلال والخيرات إلى القاهرة.. وعرفت القاهرة الجوع .. على أن تجار الغلال كانوا يدفعون قدراً طيباً من المسال للذين يحكمون الطريق، وما تكاد الغلال تصل إلى القاهرة حتى تباع بأرباح فاحشة لا يقيها إلا قليلون ..

ولم تكن الغلال وحدها هي التي ارتفعت أسعارها فقد غلا كل شيء حتى الماء .. ولم يعد في مقدور الإنسان من أهل القاهرة أن يتحمل تكاليف الحياة .. وحتى الموت نفسه كان قد أصبح غالى الثمن !

على أنه لا الفقر ولا العذاب ولا كل ما يرهق أهل المدينة ، كان سبباً صالحاً لتعكير صفو الحياة على الوالى التركى والذين حوله !

كسب تجار الحبوب في أيام الحرب أضعاف ما كسبوه في أعوام السلام وكانت لهم منزلة خاصة عند الوالى .. وكان لهم ذوق مصفى في تقديم الهدايا والهبات والجوارى والحسان لكبار الرجال ...!

أما تجار الأسلحة والبارود فقد كانوا أكثر ذكاء من تجار الحبوب ، إذ أشركوا الوالى في أرباحهم، فكانوا يكسبون في مدى أيام قلائل أضعاف ما يكسبونه أثناء السلم من تجارة عام كامل ..

وكان تجار الحبوب وتجار الخروب وصديقاتهم من الجوارى والمحظيات ، يؤلفون بطانة للوالى وللكبار الرجال !

وقد حاول أهل القاهرة أن يشكوا من ضغط الحياة عليهم ، وطالبوا بتخفيف ويلات الغلاء ، والتمسوا من أمرائهم أن يعقدوا الصلح حتى تغدو الحياة أكثر احتمالا ، ولكن ضجة المصالح الفاسدة خنقت أنغام السلام . واستمرت الحرب ، واستمرت الحياة تمزق الأحياء !

...

ولكن الوالى التركى كان رجلا شديد الذكاء . . فقد شاهد تهرم الناس
وضيقهم بما هم فيه . وقد رآهم يتصلون بطلباء الأزهر ويمضى واحد منهم إلى
الأمراء مطالباً بالصالح فأمن العلماء على أرضهم الشاسعة ! . . وبطريقة
ما جعلهم لا يشعرون بوطأة الغلاء . . . وهكذا استطاع أن يعزل العلماء
عن الشعب . . ثم رأى أن يشغل الناس عما هم فيه من أمر الغلاء وأعباء
الحياة فقرر أن يشركهم في هذه الحرب . . . وفي الحرب ينسى الإنسان
نفسه ، وينسى متاعبه ، وينسى كل شيء . . . وخرج بنفسه فطاف بهم
وطالبهم أن يخرجوا إلى المتاريس ليدافعوا عن مدينتهم العزيزة ، وحين
يردون عنها الفزو فستمع لهم الهبات وستتهدى الحرب ، وتخفض
الأسعار . لقد استعان على الناس بالعلماء ، فطالب العلماء أهل القاهرة
أن يستجيبوا « للباشا » وعلى « يد الباشا » صلاح الأمور !
وصدق أهل القاهرة . . . وخرجوا إلى المتاريس . . . وأقاموا بها
ثلاثة أيام . .

وفي هذه الأيام الثلاثة التصقت نفوسهم كما لم تلتصق من قبل . وعرف
أهل « باب الشعرية » كثيراً من متاعب أهل بولاق . . وأشفق أهل بولاق
على ما يلقاه أهل « الحسينية » و « بركة الفيل » . . وروى بعضهم لبعض
قصصاً رهيبية انتفضت لها نفوس الكثيرين .

لقد كان الكدح اليوى يعزل كل رجل عن أخيه الذى يعانى من نفس
الأشياء . . . ولكنهم فى هذه الأيام الثلاثة أطلوا على نفوس بعضهم من
خلال الأحاديث والشكايات . . وأدرك الجميع أنهم ضحية سخرية واحدة .
وأنهم مرتبطون بخيط واحد مندفعون إلى مصير واحد :

وقرروا جميعاً أن يعودوا إلى بيوتهم . . وفى الطريق إلى الدور كانوا
يزنون رؤوسهم أسفاً ، لأن شيوخهم لم يدافعوا هذه المرة عن مطالبهم
بتخفيض الأسعار . . ولم يتحرك واحد منهم منذ قابل بعضهم « اسماعيل

بك، ليطلب منه أن يعقد الصلح مع «مراد بك» .. ودارت وراء أسوار القصر أحداث شارك فيها الوالى التركى ولا يعرفها الناس !

ولم يكد الجنود يخلون إلى أنفسهم وراء المتاريس حتى تركوا أماكنهم هم الآخرون، وعادوا إلى بيوتهم .. فهم يعانون من الحياة كما يعاني أهل القاهرة ... وهم على أية حال لا يعرفون لأنفسهم مصلحة خاصة فى أن يقتلوا إخوانهم وأصدقائهم والرجال الذين لم يسيثوا إليهم من جنود «مراد بك» !
إن أهل القاهرة والجنود ، يشعرون أنهم يتركون حياتهم لرجال آخرين يتصرفون فيها ، ويستغلونها ، ويسخرونها كما شاءت الشهوات والأطماع .

واستقبلت البيوت رجالها الغائبين !
أية عاصفة مشؤمة هوجاء هبت على هذه البيوت جميعاً ؟ هنا امرأة تصرخ وهناك طفل يئن .. أشياء وثمة أشياء خرساء !
ليسوا هم الأمراء والأتباع هذه المرة .. ولكنه عدو غير إنسانى ، بشع ، فضليح ، مهين .. إنه الجوع ! ..
وقالت امرأة تلهث لزوجها الذى يدارى الدموع : « لم يعد عند الخبازين قمح ولا ذرة ، وقد بعث كل شىء ! »

وقال طفل غاضب حياته وهو يتعلق فى عنق أبيه بذراع واهية : « أمى تقول أن أختى الصغيرة ماتت .. إنها فقط كانت تريد لقمة .. ولم تكن هناك لقمة ! »
وأطبق الليل على القاهرة .. وتفجرت بعض العيون والآفواه بالدماء !
وفى مكان آخر من المدينة كان الوالى التركى يجلس مع « إسماعيل بك » ، وحقبة من الأمراء والتجار الكبار ..

وأمام أفداح الخمر الفاخرة ، وعلى أنغام الرقص جلسوا يتناقشون .. وتناول أحد تجار السلاح قطعة طيبة من اللحم وقال وهو ينهش ما فى يده : « ما دام أهل القاهرة قد تركوا المتاريس فسيموتون من الجوع ! .. »
ونظر إليه « إسماعيل بك » ، مندهشاً .. وكان مهموماً حقاً .
وأخذه الباشا ، يشرح الموقف لتجار الحبوب ، فعرض عليهم أن يخففوا

الأسعار بعض الشيء ليضمن لهم استمرار الربح.. فان هذا وحده هو الذى سيقنع الناس والجنود بالخروج إلى المتاريس.. وأطرق تجار الحبوب.. وتقدمت إحدى المحظيات إلى «الوالى» بكأس من ذهب، وجعلت تسقيه وهى تلاطفه.. ثم قالت: «اقتل هؤلاء الناس الذين يعصون أمرك يا مولاي».. وهتف أحد تجار السلاح ضاحكا: «أنها فكرة طيبة».. وضحك الجميع. ولكن «اسماعيل بك» ظل وحدة صامتا مهموما..

وبينما كان «اسماعيل بك» يتابع عبث الرجال أقبل رسول يقول: «إن مراد بك على أبواب القاهرة».. وانتفض «اسماعيل بك» واقفا، وقفز «الوالى» من مكانه.. واختلط المجتمععون وتعالَت الصرخات.. وشعر النساء بمثل حد السيف يمس الأعناق الناصعة الرقيقة:

وفى لحظة كان «اسماعيل بك» مع بعض أتباعه يقفون وراء المتاريس أما الوالى فقد خرج فى موكب كبير من الحراس يطوف على الحارات والدروب.. وحطم الحراس أبواب الحارات.. وأخذ الوالى يدخل بيوت الجنود وأهل القاهرة يطالبهم بالخروج إلى المتاريس، فالقاهرة فى خطر؟

وأشار إليه رجل يحمل طفله الميت وهو يقول: «هذا هو الخطر»، وصرخت فى وجه امرأة «أتركونا.. لإننا نموت من الغلاء والجوع»، وذهل الوالى.

وطاف على بيوت العلماء لعله يجد واحدا يمضى معه ليقنع الناس.. ولكن العلماء جميعا نصحو له بالاعتد على أهل القاهرة.. فهم مشغولون عن محاربة «مراد بك» بمحاربة الجوع.. وصاح الوالى محققا فى واحد منهم: «ولكنكم أنتم تحركون القاهرة».. وهم يستمعون لكم وحدكم.. فقال الشيخ فى وقار: «لا.. أنها هى التى تحركنا وقد أفلحت لبعض الوقت فى أن تفصل بين أغنياء العلماء وبينها.. فلو طالبها أحد اليوم بما تريد لقتلته».. وظل الوالى يطرق الابواب حتى الصباح.. بلا جدوى.. لقد سمع

من كل بيت .. من كل امرأة ورجل وطفل .. أن الخطر الحق يلبث منه
ومن أعوانه .. وإن القاهرة تريد أن تعرف الحياة الآمنة . إنها تريد
الحبز والسلام ! ..

وفي الصباح كانت القاهرة كلها تهتز بالصياح والوعيد .. وكان العلماء
حتى الذين صانعهم الوالى .. يمشون مع الناس مطالبين بالسلام ، وبتخفيض
الأسعار ، وإصلاح الحياة ! ..

وعلى أسوار القاهرة — وراء المتاريس — كان إسماعيل بك ينتظر
هو وحفنة من جنوده .

وتقدم أهل القرية إلى المتاريس فخطموها .. وأدرك إسماعيل بك ،
أنه لا يستطيع أن يحارب في جبهتين رجال قليلين ، فقد كان معظم الجنود
مع الأهالى يطالبون بعقد الصلح وتخفيض الأسعار ! وكان هذا كله جديداً
عليه .. واضطره الناس إلى ترك الأسوار .. وسار معهم إلى والى التركى ،
الجميع يطالبون بعقد الصلح .

إن المعجزة وحدها هى التى أخرت هجوم «مراد بك» ، فلو أنه هاجم
القاهرة فى تلك الليلة لاستولى عليها بلا عناء .. وربما طار رأس الوالى عن جسده .
وأعلن «الوالى التركى» أنه سيعقد الصلح بين أمراء القاهرة وأمراء
الصعيد .. وكان وهو يعان للناس هذا القرار يعالج فى أغواره إحساس
الداهية المهزوم . — والغلاء يا باشا ! ؟

وسكت «الباشا» قليلاً ثم أعلن أنه سيخفض الأسعار .. إن الأسعار
ستبدأ فى الانخفاض .

ولم يقنع الناس ، وطالبوا بأن تعود الأسعار إلى ما كانت عليه ،
وطالبوا أيضاً برؤوس كبار المستغلين .. فهم مسئولون عن الأرواح التى
أرهقها الجوع !

وأدرك الباشا أنهم فى هذه اللحظة قادرون على خطف رأسه هو ..
فلم يقل شيئاً .. ودخل إلى قصره قليلاً ، وتقدم الناس يزحفون إلى القصر

وسقط بعض الحراس قتلى . والناس يزحفون .

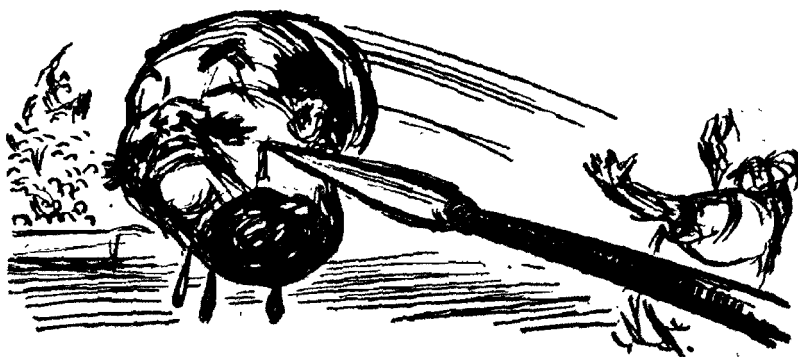
وخرج « الباشا الوالى » ضاحكا ومن ورائه فارس عملاق يحمل حربة طويلة . . وأشار اليه فرفع الحربة وأشار الباشا ضاحكا إلى رأس بشرى معلق فيها وكان الدم ما زال يقطر منها . . وصاح : « هذا هو عدوكم الأكبر ، وهلل الناس وغمرهم فرح هائل . . فهذه هى رأس أكبر تجار الجبوب لكم أذيع أنه صديق الباشا وصفيه . . !

وعاد الباشا يقول للناس « هل أنتم راضون عنا ؟ . . قتلنا الغلاء ، وهذا هو صانع الغلاء ! »

وتعالت الأصوات : « راضون . . الله يرضى عنك » وانصرف الناس مستبشرين وخيل « للباشا » أنه كسب المعركة بعد أن ضحى بصديق عزيز عليه حقاً . . وخيل إليه أنه سخر بالناس .

وعلى أية حال فقد عادت الأسعار كما كانت . . وعقد الصلح بين الأمراء . . وانتهت الحرب . ولم يعد أحد من التجار يستطيع أن يسرق من أرزاق الناس اعتماداً على صداقة « الباشا » . وهكذا أبطأت الكنوز والأموال عن خزائنه .

وبدأت بهجة الحياة تشرق من جديد فى وجوه الأحياء من أهل القاهرة وأدركوا منذ ذلك اليوم أنهم يستطيعون أن يفرضوا حقوقهم على الأمراء وعلى الوالى نفسه ، وأنهم يستطيعون دائماً أن يكسبوا المعركة . . مهما يكن النصر بعيد المنال . . حتى لو تخلى عنهم قوادهم لبعض الوقت .





طلبت الحكومة من الفلاحين والتجار والصناع أن يدفعوا مزيداً من الضرائب . وأن يضحوا في هذه الأيام بكل شيء لأن مصلحة الدولة في خطر . ولم يكن لديهم شيء يمنحى به على الإطلاق . . فنذ سنوات طوال — عندما لم تكن مصلحة الدولة في خطر — وهم يحصلون على القوت بمعجزة وأحياناً لا تسعفهم المعجزة ! . . ولقد هجر الفلاحون الحقول هرباً من لدغ السياط فتخطفهم لصووس البدو ، وارتمى الآخرون تحت أقدام المرابين ليستطيعوا دفع الضرائب المتركمة ، فاستولى المرابون آخر الأمر على ماشيتهم ثم صاروا عبيداً يعملون بلا مقابل في الأرض التي امتلكوها ذات يوم ، ثم لم يعد في مقدور دماثهم أن تنزف قطرة أخرى . .

ولم يعرف الصناع والتجار الصغار في القاهرة كيف يستطيعون أن يدفعوا ضريبة ثانية ، فان كدحهم المضحى ليعجز حتى عن اطعام الجياع من ورائهم لم يفهم واحد منهم شيئاً من هذا الذي يحدث في تلك الأيام الزاهرة من عصر اسماعيل !

فانه على الرغم من لخب الجوع الذي يلفح أمعاء الفلاحين فما زالت الطرق والترع تشق لتصلح أرض السادة الكبار ، والقصور الباذخة ترتفع على مشارف الأفق النابض بالأنين ، حيث يتهاك في صمت عديد من البيوت السوداء ! وغير بعيد من الأزقة التي تزحف الأطفال عراة على طينها ، كانت الحدائق تزدهر ، والتمائيل يرتفع إلى السماء ، والشوارع الأنيقة تمتد ، والسهرات الباهرة تزحم ليالى القصور !

ولقد قيل ذات يوم للذين عرفتهم اللعنة أن مصر أصبحت للبصريين . ومع ذلك فهم يرون وجوها حراء جديدة تزحف تحت قبماتها لتغزو المدن والقرى ! وفي الحق أن مصر كانت قد استقلت عن تركيا . . وبدأت بإعلان العصيان في وجه تركيا ، فقوامت الدول الكبرى هذا العصيان أول الأمر كما كانت تقاوم كل حركة استقلال وتحرب في ذلك الزمان . غير أن انجلترا

الواسعة الغنى بدأت تلوح لمصر بمساعدتها المالية البريئة تشجيعا لمحضتها . ١
وعندما قبلت مصر هذه المساعدة أيدت انجلترا استقلال مصر وأخذت
تملأ سمع العالم بأحاديث طوال من حقوق الشعوب في الحياة الحرة، وحملت
تركيا على أن تعترف لمصر بالاستقلال، ومضت تعرض على مصر خبراء فنيين
يشرفون على إنفاق المساعدات المالية في وجوه النهضة . وأخذت مصر بدورها
تستدين وتستدين، والخبراء يتدفعون لمراقبة الاتفاق .. ثم لاقية الهداد ..
ثم للإشراف الكامل على الميزانية كضمان طبيعي للوفاء بالديون وفوائدها ..
أما الذين عرقهم اللعنة ، فقد وجدوا أنفسهم على الدوام يدفعون
الضرائب .. كانوا يدفعون أول الأمر لإرسال الجزية إلى تركيا ! .. ثم
عادوا يدفعون لاداء ديون الدولة لأوربا وأنهم ليطالبون الآن بدفع ضرائب
أخرى لأن مصلحة الدولة في خطر .

وأقبل منهم إلى القاهرة بعض الذين وسعهم أن يرحلوا ، وما تزال في
خيالاتهم صور سمعوها في الطفولة عن الأجداد : إذ يزعون إلى القاهرة
ليلتقوا بأخوانهم وأقاربهم من التجار والصناع ، ويندفعون إلى الجامع
الأزهر مستجبرين بعلباتهم من مظالم أمراء ذلك الزمان . وكان العلماء يندفعون
بالمواكب الثائرة ليقبضوا حقوق الناس من حكومة مصر !

ومضى الأحفاد على نفس الطريق .. ومات منهم على الطريق غير قليل
وعندما وصل الباقون وجدوا أمام الجامع الأزهر رجلا غلاظا عديدين
أنهالوا عليهم بالضرب ، وأمسكوا منهم بكثيرين فساوهم إلى السجن ؟ ..
وبعد حين التقى الذين ظلوا أحراراً فلاذوا ببيت أحد التجار وقرروا أن
يزوروا العلماء في دورهم .. غير أن العلماء لم يكونوا كما يشتهون: فقد اختفى
بعضهم ولا أحديدرى أين اختفى؟ ومضى الآخرون يمتدحون عدل الحكومة
النقية النقية وصلاحيها .. ! وأثر بعضهم العاقبة فلم يعد يتكلم ! ولقد تكلم
واحد منهم لحكم عليه العلماء الرسمىون بالكفر، وحكم عليه القضاء بالسجن !

واقترح واحد من الصناع على المجتمعين أن يمضوا إلى جريدة «التجارة» ليقابلوا «أديب اسحق» فقال له موظف صغير كان قد فصل وشيكا : «لقد عطلت الحكومة جريدته ولكن تعالوا إلى باب الخلق لنبحث عنه في المقهى» كانوا عشرة رجال من الفلاحين ، والصناع ، والتجار ، وموظفا صغيرا ومضوا يترنحون على الطرقات بخطوات ذاهلة كأنهم يحملون فوق الظهور أثقالا ليقبلوا بها من مكان بعيد . والحق أنهم على مدى أجيال طوال قد حلوا في الصدور منهم وعلى الظهور كثيراً من الأهوال والأثقال ! ولم يجدوا «أديب اسحق» .. ولا المقهى ! فقد أغلقت الحكومة ، واعتقت صاحبه ، وعماله ، وزبائنه ...

ودب في نفوسهم ياس مض .. إلى أين يتجهون؟ لا أحد يستطيع أن يوجه خطواتهم .. وقال واحد من الفلاحين : «سنعود إلى قرانا ياذن الله !» غير تاجراً صاح فيه : «اسكت ! ... تعالوا معي إلى منزل أن جارنا إليك» ..

...

وجلسوا ينتظرون «البك» في حجرة فسيحة تطل على حديقة المنزل .. كان هو منشغلاً إذ ذاك بالحديث مع اثنين من زملائه الضباط ومعهم ثلاثة من الموظفين .. «إن الحكومة لتضئ مع هؤلاء الموظفين جميعاً على سياسة عجبية حقاً .. فهي تدفع لهم أجوراً يواجهون بها نفقات الحياة .. ولئن ارتفع صوت واحد منهم بالشكاية لوجد نفسه على الفور في الطريق ! .. ولقد اضطرتهم الحكومة بأسلوبها هذا إلى أن يرتشوا .. فأصبحت مصالح الناس لا تقضى إلا إذا دفعوا الثمن .. أما الذين تأبى عليهم ضمائرهم أن يرتشوا فليموتوا من الجوع ..

فإذا ما جئت إحدى الصحف هذا الفساد العريض ألني بصاحبها في السجن ... وهي لا تسمح لهم بأن يتحدثوا في السياسة أو يشتغلوا بها . وإنهم ليرون الانجليز يتسللون إلى كل مرفق ، ويشعرون — كمواعين — بأن

عليهم مسئولية تنبيه الشعب إلى هذا الخطر الذي يوشك أن يفتق الوطن .
ولكنهم محرومون حتى من هذا الحق . . . حق الذي تعذبه النار في أن يصرخ !
ولقد شعرت الحكومة منذ حين بروح تمرد على هذا الوضع فأخذت
تفصل الموظفين بلا حساب وتعين بدلاً منهم أجناب بمرتبات قاحشة !
إن هذا الضغط على أرزاق الموظفين وهذه القيود الغلاظ على الحريات
هي التي تحمي الاستعمار الزاحف ، ولهذا يجب تحطيمها لتصبح مصر للبصريين
حقاً . . . يجب أن يشعر الموظف أن الوطن يمنحه بقدر ما يمنح هو الوطن . .
فهذه البلاد بلاده هو لا بلاد « نوبار باشا » أو « رياض باشا » أو الدائنين !
ومن أجل ذلك فلن يسمح الموظفون بأن يوفر منهم واحد بحجة توفير
المال للدائنين ! . . .

وانتهى الموظفون والضباط إلى قرار . . . فنهض « البك » ومضى إلى
الحجرة التي ينتظر بها التجار ، والصناع ، والفلاحون . . . ولم يكذب يشرف
بطاعته المديدة المهيبة حتى خف إليه جاره التاجر قائلاً : « أسعفنا يا لطفي
بك . . الضرائب الجديدة يا سليم بك » . . . وكانوا جميعاً واقفين ، و « لطفي
سليم » ينظر إليهم بقامته الفارعة ، كفارس سيقدم وشيكا على عمل نبيل . .
ونظر إلى التاجر في رسوخ وهو يقول : « هل تعلم أنهم وفروا منا ألفين
 وخمسمائة رجل ؟ ألفين وخمسمائة ضابط ، سيجدون أنفسهم وأولادهم بلا
طعام فرد الموظف المفصول : « والمئات الأخرى من الموظفين
المدنيين ؟ » . فصرخ أحد الفلاحين : « أين تذهب الضرائب التي تدفعها ؟
الضرائب يا بك . . أقتذنا يا بك ! »

وقال لطفي سليم : « في الغد سندبر نحن الأمر يا ذن الله . . . سنذهب
إلى المالية . . . فقال الجميع : « إن شاء الله » . وانصرفوا في تلك الليلة
من فبراير .

... .

وفي الصباح تحرك ستمائة ضابط من المسرحين إلى وزارة المالية على رأسهم البكباشي « لطفى سليم » المدرس بالمدرسة الحربية . . . وكان وزير المالية إذ ذاك انجيزيا فرضته مصالح الدائنين . ولم يكن « خديو مصر » حفيماً به على الإطلاق فهو الحسيب والرقيب على كل التصرفات المالية والشخصية للخديو . . . والدولة !

وفي الطريق إلى وزارة المالية ، مر الضباط على المجلس النيابي . . . وكان نظام الانتخابات إذ ذاك لا يسمح بأن ينتخب الناس نواباً يمثلون مصالحهم الحقيقية . ومن أجل ذلك فلم يصحبهم غير أربعة من النواب ، امتثلوا ظهور الخمر ، وتقدموا صفوف المظاهرة .

كان هؤلاء النواب يرون ، مع سواد الشعب ، الموظفين ورجال الجيش أن هذه الوزارة تحكم باسم الدائنين والمصلحتهم وحدهم ، وأنها يجب أن تزول . . . وكاوا يطالبون أيضاً بإطلاق الحريات العامة للمصريين ، وبأن تيسر الميزانية لخدمة حاجات الشعب التي تتحمل العبء الأكبر من الضرائب .

ومضت المظاهرة يحيط بها الناس من كل جانب هاتفين : « الغوا الضرائب » وقابلت المظاهرة عربية « نوبار باشا » فأحاط به المتظاهرون . . . وقبل أن يبدأوه الحديث استشاط غضباً وأمر الحوذي أن يلب بسوطه ظهور الخيل والناس !

وهوى الحوذي يسوطه على الجياد فهوى عليه المتظاهرون بأيديهم وألقوه على الأرض . . . وروع « نوبار باشا » وملاه الاشمئزاز من هذا الأسلوب الذي يعامل به الضباط والنواب حوذي عربته ، فصرخ فيهم : « انصرفوا أيها الفلاحون » . . . وانهمرت من فم الشتام .. لحمله اثناثرون

هو الآخر وألقوه على الأرض إلى جانب الحوذى ، والاحذية تذاوله
من كل سبيل ..

وأقبل الوزير الانجليزى إذ ذاك فاهام بعصاه على انتظارين . غير
أنه لم يكن اسعد حظاً من «نوبار» ولا الحوذى .. فقد جذبه الثائرون
من لحيته ومرغوا الأرض ببدنه الصاف ثم تقاذفوه كالكرة .. وأخيراً
سحبوه هو و«نوبار» ومضوا بهما إلى داخل قصر الوزار ،

وصادفوا درياض باشاء فى تلك الأثناء فسحبوه بهوه .. وافتحوا
أبواب مكاتب الوزارة واحتلوها ، ووضعوا الرجال الثلاثة فى حجرة
جعلوا منها سجناً ..

حدث كل هذا فى سرعة خارقة بين التهليل وصيحات الشماعة والفرح ،
وكانت الأنباء تطير بثورة الضباط ، فتتجدر المئات والمئات من الشوارع
والأزقة والدروب .. لتلتقى بثورة الضباط ..

وسمع القنصل الانجليزى بالقصة فهرول إلى «الحديو» مستنجداً ..
فأسرع الحديو إلى الثائرين ... وإذ رآه الناس دوت الهتافات من
كل جانب طالب بإلغاء الضرائب وإطلاق الحريات وتحسين مستوى
الحياة ..

وتقدم الحديو يسأل الضباط عما يريدون ، فقال رجل مجهول :
« نريد إقالة هذه الوزارة ... نريد الطعام للجميع ! نريد الحرية يا أفندينا ،
وطلب الحديو منهم أن يخرجوا عن الثلاثة المسجونين أولاً ، فلم يجب أحد
وسكت الحديو لحظة ... ثم ارتفع صوت : «حققوا مطالبنا أولاً ، وجاوبه
صوت آخر : « نريد مرتبات كافية للوظفين .. أعيدوا الذين فصلوا من
الجيش والوظائف ، ..

وقبل أن يجيب الخديو دوت طلقة رصاص .. وتقدم واحد من الضباط يريد أن يمسك الخديو من ذراعه فسحب الخديو ذراعه بعنف ، وأمر رجالة أن يفرقوا المتظاهرين بالقوة .. ودارت معركة رهيبية قصيرة وسقط عن يمين الخديو « التشريفاتي » الخاص ضريعاً بطعنة .. سيف قاتلة ..

وصاح الخديو في الضباط أن يهدأوا وأن يطمثنوا .. وإذ لو المسئول أمامهم عن تحقيق كل مطالبهم .. ثم انصرف الخديو ليقع مرسوماً بعزل « نوبار » .. ومرسوماً آخر بإعادة الضباط .. وأفرج الثوار عن المسجونين الثلاثة .. ولكنهم لم يكونوا بعد وزراء .. وبعد شهر واحد أطلقت الحريات العامة للبواطنين .. غير أنها أطلقت بعد الأوان ذلك أن الاستعمار الزاحف كان قد وطد سيطرته من خلال مرحلة الطغيان السابقة التي كتم فيها « نوبار » كل الآفواه .. واصطدم الاستعمار أول ما اصطدم بهذه الحريات .. ولم يعد في مقدوره أن يترك مصر للبصريين





انطلقت الجياد الفارسة القوية بالعربة المذهبة خلال طرقات مليئة بالفبار،
والذباب ، والرجال المهزولين .

كانوا اشاردين كغفرائ^١ سفينة فقيرة وهم يرسلون نظراتهم المتعبة إلى الحيل
الجينة العلف وإلى الأشياء التي تلتصع على بدن السيدة الشابة داخل العربة ،
ويتساءلون في حيرة : « من عساها تكون ؟ »

وأخذت « شمس » تقبض نظراتها عنهم وهي ترتجف ، فلم تكن ترى في
كل الناس غير كائنات مزعجة تتقن الحسد ، وإفراز العرق السكريه !

وإنها لتعود اليوم إلى مولاها بعد غياب أسبوع كامل ، وبها من
الشوق إليه ما يفلح كل قطعة من جسدها البض البديع . وإنها لتعود منتصرة
على أية حال ، فقد أحرزت من النجاح في مهمتها ما لم يكن يستطيعه مائة
داهية من رجال السياسة والحرب !

وكان مولاه ينتظرها معذبا ، ضيق الصدر .. وقد جلس بين جواربه
وحاشيته ، وبالقرب منه « قشتمر » فأخذ يربت على خده قائلا : « أين
أختك ؟ .. أين شمس ؟ .. لماذا لم تعد بعد ؟ ! » فقالت جارية فاتنة
« ما هذا كله يا مولاي ؟ .. نحن هنا ! » وضحك الجميع حتى « قشتمر » ولكن
مولاهم لم يكن مهيا النفس للضحكات فصاح : « أنمزحون ؟ .. ألا تعرفون
بعد إلى أي حد يتوقف مصيرنا جميعا على نجاح شمس في مهمتها ؟ ! لو أن
هؤلاء الفلاحين ظلوا متحدين . فهي النهاية إذن ! لقد ملأتهم السنوات
القليلة الماضية بالكبرياء والعدا والاحلام .. فنذ استطاعوا طرد الفرنسيين
وهم يحلون بأن يحكموا أنفسهم . ولئن لم ينجح شيخ البلد في إثارة الفتنة
العنصرية بين العرب والفلاحين ، فلن تقوم لنا نحن الأتراك قائمة بعد .
إن كل شيء يغلي اليوم ، فقد وحدث الثورة بينهم منذ سالت دماؤهم معا ،
مختلطة بتراب الأرض التي يذافون عنها ! ومع ذلك فقد كان العرب منهم

يحتقرون الفلاحين ، والفلاحون يشتمون من العرب . ومن هنا يجب أن نشعل نار الفتنة لنحول التيار عنا . . . إنكم لتخفون على أشياء خطيرة ، ولكنني أعرف جيداً أن مواكبهم الشائنة ، التي يختلط فيها عرقهم العفن بغباء الطريق ، تنطلق في كل يوم بصباح مشثوم ، مطالبة برأسي . . رأسي أنا ! . . إنكم جميعاً تكذبون على ولكن . . ولكن أين شمس ؟ لماذا لم تعد شمس ؟ وكانت « شمس » قد بلغت القصر ، فأسرعت إلى مولاها تزف إليه البشرية ، في صوتها الذي أرق نغماته السحر والشراب . لقد تم كل شيء على مايرام ! . .

قال : « كيف ؟ . . كيف يا شمس ؟ » ومد ذراعيه إليها ، فاندفعت نحوه قبله . . وبدأت تروى له كل ما حدث لقد استبقاها شيخ البلد العجوز الماكر طويلاً ، وفي كل صباح كان يقول لها أنه في حاجة إلى ليلة أخرى ليفكر ، ولقد رأى شيخ البلد أول الأمر ، أن إثارة الخلاف بين العرب والفلاحين غير ممكنة إلا في الريف ، أما في القاهرة فن المستحيل عليه أن يعرف من هم العرب ، ومن هم الفلاحون . . وأهل القاهرة أقسمهم لا يعرفون ومن أجل هذا فسيثيرها فتنة بين المسلمين والأقباط ! وقد استدعى بالفعل رئيس جماعة الأذكار والناشيد الدينية ، وهي جماعة متعصبة حماء ، سيطر على عقولها جنون العظمة والمزاهقة ، والأوهام الغامضة عن المجد القديم .

ثم لوت « شمس » بدنها المثقل بالمتاع الانثوي ، وغمر وجهها الأبيض نور عجيب ، واستمرت تقول : « آه يا مولاي لو شهدت هذا العجوز اللطيف ، وهو يستقبل رئيس هذه الجماعة ، لقد وضع أمامه سيفاً ومصحفاً ، ثم أخذ يحدّثه ببراءة عن فساد أمور الدين والدنيا ، وعن المناصب الخطيرة التي يتولاها الأقباط ويحرم منها الناهيون كأعضاء جماعة . . . ثم أخذ

همس في اذنه بكلام طويل عن المجد الذي ينتظر هذه الجماعة . . . والمناصب التي يجب أن يحتلها كبار أعضائها . . . ولم أسمع من غبني بقية الحديث ولكن رأيت رئيس الجماعة يهز رأسه وقد انبسط وجهه المتقلص المتشنج ! وعندما نهض ، كان الشيخ قد وهبه غلاما وكيسا من ذهب ! وحين خرج لم يدعى شيخ البلد الماكر انصرف ، فقد استبقاني ليلة أخرى ، وفي الصباح استدعى « سر كيس » ، وكلمة بتأثر عن مجد الفراعنة . . . وعن المناصب التي يحرم منها الأقباط أصحاب البلد بينما يتمتع بها أحفاد العرب الغزاة وحدهم ! وتجهم « سر كيس » ، وأوشك أن ينصرف ، وهو يبدي استنكاره لهذا الذي يسمعه . ولكن شيخ البلد همس في أذنه وهو يخرج ، أن يحذر أبناء ملته من مذبحه ستحدث عن قريب ! . . .

فصفق صاحب القصر . « ما أبرع هذا . . . ولكن متى يتم هذا يا شمس ؟ فقالت شمس : « غدا إذا أرسلت إليه خمسة أكياس من الذهب ! أنه ليجتمع الآن بكثيرين من جماعة الأذكار والأنشيد الدينية ! . . . »
ونهض صاحب القصر ليأمر بإرسال أكياس الذهب إلى شيخ البلد ! .

...

وفي الغد كان مقرراً أن يجتمع الناس في مسجد كبير ، لينحدروا منه إلى قصر الوالي يطالبونه بأن يعتزل . وكان الناس في تلك الأيام يجتمعون في المساجد والكنائس ، ثم تقذف بهم الأماكن المقدسة إلى حرم الكفاح في الميادين ، والطرقات ، وأمام قصور الطغاة !

غير أن شيخ البلد كان قد دبر كل شيء بمهارة . ففي الصباح الباكر قبل أن يزدحم الناس في المساجد والكنائس مرثلاثة من الشرطة بحانوت الحاج مصطفى ، وهو رجل طيب يحله أهل الحى ، واغتصبوا من الحانوت أقشة

وروايح ، ثم قتلوا الشيخ و غلاميه ، وأعطوا المسروقات « لجرس »
و « مرقص » .. واختفى رجال الشرطة على الفور ، ولم ينسوا قبل أن يختفوا
أن يهمسوا بكلمات « للشيخ على » ، الذى كان يقف غير بعيد ..
وصرخ الشيخ على بصوت مرتفع : « يامسليين .. الحقوا يامسليين ..
مرقص قتل الحاج مصطفى ونهب تجارته ! » ..
وصرخ مرة ومرة .

وطبقا للخطة المرسومة انقض « جرجس » على الشيخ على العضو الموقر
بجماعة الأذكار ، فصفعه ثم انتزع عمامته ووطأها بحذائه ..
وتجمع رجل من هناك ورجل من هنا بينما لاذ « مرقص » و « جرجس »
بالفرار أمام عيون الناس الذين وقفوا جزعين ينصتون للشيخ على وهو
يروى لهم قصة مصرع الحاج مصطفى وولديه ، وعن البضائع التى سرت
لتذهب إلى خزانة الوالى !

وفى تلك الاثناء كان خطيب فى المسجد يحدث الناس عن واجبهم فى
النضال .. وكيف ينبغى لهم أن يحاسبوا الوالى العثماني وجنوده ، على الفساد
العريض الذى يملأ الأرض .. وكان الرجل قد انتهى من حديثه إلى
حض الناس على انتزاع أقاتهم من أنياب الوالى ، وأظفار أعوانه الملطخة
بالدماء ! .. فهم الآن ينتظرون إشارة البدء ، لينقضوا على قصر الوالى
ومخازنه .. وفى تلك الأيام كان الضيق والغلاء ينهشان أعماق كل نفس ،
والفاجعة هى الشيء الوحيد الذى تصافح به الحياة لإحساس الناس . وكان
كل رجل أو امرأة يريد أن ينفجر فى شيء ما .. ولم يكن أحد يستطيع
على الإطلاق أن يحتمل جاره ، فالناس حتى الأصدقاء منهم ، يتشاجرون
لأنه الأسباب ..

وفي لحظات كهذه تموت في النفس الإنسانية أجل معاني الحياة .. يموت الحب ، وتموت السباحة ويصبح الكيان البشري مجرد شحنة من الكراهية على استعداد تام لأن تنفجر في وجه الذين جعلوا من الحياة مأساة .. فان لم تنفجر فيهم ، انفجرت في أى شيء آخر !

وهكذا كان كل رجل في المسجد يشعر في أعماقه بطاقة رهيبة ، ويشعر أن جاره هو أيضا طاقة أخرى مساعدة ومن هنا كانت الوحدة بين هؤلاء الذين ربما لم يعرفوا بعضهم من قبل ، والذين لم يخطر لواحد منهم أن يسأل أخاه من هو ؟ ولا كيف يعيش ؟ ولا من أى دين أو أب ينحدر ؟ .. أنهم جميعا ليحملون نفس الأثقال ، ويخشون نفس المصير ، ويهزون بالأمل الواحد . وهذا يكفي . . .

ولم بدأ الناس يتحركون ، اندفع الشيخ على ، إلى المسجد ، وفراغ المسجد نفسه كأنه وتر مشدود !

كان عارى الرأس ، ولقد اختاروه رجلا يحسن الكلام ! ومضى في صوت متهدج يتحدث عن الخونة الذين يسرقون لحساب الوالى .. ثم تحدث عن مصرع الحاج مصطفى ، وولديه .. وروى قصة عمامة التي وطئت بالنعال وهو يبكي .. وطالب بالثأر للدين من جرجس ومرقس وأهل بلدتهم فهم الأعداء الحقيقيون ، وهم شر عدا من الوالى نفسه . وإن جرجس ومرقس لى الكنيسة المجاورة ، فلتهاجم الكنيسة إذن !

وكان بين الجالسين في المسجد غير واحد من جماعة الأذكار .. وخرجوا هم أيضاً مطالبين بالثأر .. وحاول خطيب المسجد أن يتكلم .. ولكن جماعة الأذكار كانت قد جعلت الناس في تلك اللحظة ينسون تماماً أنهم في ثورة ضد الأتراك ، والأتراك وخدمهم الذين سيكسبون من كل هذا .

وكان الذين في الكنيسة المجاورة قد انحدروا إلى قصر الوالى وعغازنه باسم الثورة ، وفوجئ حارس الكنيسة بالنار تحيط به ، وبرجال يقبضون عليه ويلقونه فى النار! ولم يستطع الرجل العجوز أن يفهم شيئاً، ورأى من خلال الدخان وهو يحترق كثيراً من الوجوه القاسية المتجهمة التى تضحك فى وحشية ، والتى كانت بالأمس سمحة حزينة تبتسم فى إشفاق .. وطافت به إذ ذاك صورة المسيح رمز الصبر والرحمة وشهيد السلام .. وخيل إليه وهو ينتهى أنه يعيش عبر التاريخ ، فى بعض عصور الشهداء والقديسين !

* * *

وفى الليل كان قصر الوالى يصخب برنين الكؤوس والضحكات . وكان هذا يحدث كل ليلة حتى مر أسبوع .. وفى مثل ليلة الحادثة وقد تمدد الوالى على أريكته إلى جوار «شمس» بينما انعقد ضباب الخدرات الأزرق الشفاف على الرؤوس ، والجوارى يرقصن على خفق الشموع ، والخمر الفاخرة تسيل على أجسادهن . قال الوالى لشمس ويده على ظهرها العارى . « ألا ترسل لشيخ البلد مكافأة جديدة ! » فتمايل أحد المجالسين بالقرب منه ، وقال بلسان أثقله الخدر والشراب . « ولكن لم يعد لدينا مال ! » وضع الجميع بالضحكات .. فقال الوالى : « إذن اجمعوا من غد عشرين كيساً من أهل القاهرة .. سموها ضريبة .. إل .. أى شئ .. وادفعوا له عشرة أكياس ! إنه خادم أمين .. » . فقالت شمس : « إنه داهية يامولاي ! .. لقد أخذ منذ أمس يزور رجال الدين من الأقباط والمسلمين ، ويدعوهم إلى تهدئة الحال ! » وضحك الوالى طويلاً وهو يقول : « هذه هى السياسة يا شمس ! إنه يذهب بإسمى أنا أيضاً ! » .. قالت شمس : « لن تقوم للثورة قائمة بعد .. لأنهم يتناحرون منذ أسبوع كامل ! » وإذا أخذ الوالى يقبلها شاكراً قال فتستمر بزهر : « الفضل لشمس .. لاختى شمس ! » . غير أن رئيس الشرطة دخل

جأة وهو متجه . . فقال له الوالى ، وهو يتطوح على أريكته : « ماذا يا وجه النحس ؟ . . أهذه هيئة تدخل بها على مجلس شراب ؟ » فقال الرجل فى صرامة : « إن طلبه الأزهر مجتمعون على شر » فقال الوالى مستخفاً : « وماذا يريد الصغار » . فقال رئيس الشرطة : « ومعهم كثيرون من جماعة الأذكار » . فقالت شمس : « حسنا . . » . فقال رئيس الشرطة : « ومعهم أيضا شباب الأقباط » . فرد الوالى عليه : « ألم يقتلوا بعد ؟ ! اذهب . . اذهب . . ودعنا .. »

- وذهب رئيس الشرطة ثم عاد من فوره . إن الأنباء ليست طيبة إلى الحد الذى يجعلهم يبتهجون هكذا .

فبعد أن أحرقت الكنيسة أخذ «سركيس» يطوف بالكنائس الأخرى يدعو الأقباط إلى رد العدوان . واجتمع كثيرون منهم بالفعل ، واستعدوا لرد العدوان ، غير أن بعض شبابهم تساءل : « وماذا نصنع بالثورة ؟ » . ولم يجدوا جواباً . . وعادوا يسألون : « وقضيتنا ! ، قضية استقلالنا وحریاتنا ؟ وهذا الوالى الذى يفسد فى الأرض . . أتتركه لندخل فى حرب دينية ؟ » .

وبينما كان شباب الأقباط يتناقشون أخذ طلاب الأزهر فى المسجد الكبير بعد صلاة المغرب يعلنون استنكارهم للعدوان البشع . . يوماً بعد يوم ، وانضم اليهم كثيرون من جماعة الأذكار والناشيد الدينية . . وبالأمر وقف على المنبر واحد منهم ، واعترف بأن صلات كثيرة حدثت بين شيخ البلد وشيخهم ، وأن الشيخ على نفسه حضر اجتماعات فى بيت شيخ البلد ، وأعلنوا براءة الدين وبراءتهم من هذه الجماعة . . وفى عصر اليوم استطاع عشرون من شباب الأزهر وجماعة الأذكار أن يهاجوا بيت الشيخ على ،

وحملوه حملا إلى الأزهر ، وأمام التهديد الحائق بتمزيق جسده اعترف الشيخ على بكل شيء . . .

وفي لحظات خاطفة حضر بعض شيوخ الأزهر ، ومضت مظاهرة إلى الكنيسة الكبرى التي كان سرئيس يهيج فيها الحواطر . . . وتردد من خارج الكنيسة هتاف واحد : « الدين لله والوطن للجميع » وتجاوبت جدران الكنيسة بالهتاف الرائع . . . وخرج الذين في الكنيسة ومضوا جميعا إلى الجامع الأزهر . . . ووضع الأقباط على رؤوسهم عمام الشيوخ ، ولبس كثيرون من شباب الأزهر قلانس رجال الدين المسيحي .

وشهد المسجد العتيق فيضانا من عواطف الأخاء لم يشهدها من قبل ومضى الأقباط والمسلمون يتعانقون : . . بينما وقف شيخ عجوز على المنبر يغان أن المسلمين سيذبحون لبناء الكنيسة من جديد على الرغم من الجوع الذي يعيش فيه الجميع ! . . وقال أحد التجار : « لم تنى أ تبرع للثورة والكنيسة بنصف ما في خانوتي » ، ثم انتهالت التبرعات . . . وإذ ذلك تقدم فتى أزهرى يطالب بمحاكمة الذين أثاروا الفتنة ، وأفتى بأن دماءهم مهددة بحكم الإسلام وتغالت في المسجد ضيحات التكبير وهتافات للوطن . . . والثورة !

لقد وضع عندهم جميعا الساعة ، أن الذين دبروا الفتنة هم أعداء الثورة فانسكبوا صفوا واحداً من المسجد إلى شيخ البلد ، يطالبون برأسه . . . برأس الوالي :

وإذ سجع الوالي من رئيس الشرطة هذه الأنباء انتفض مروغ القلب رضاح في شمس : « إذ هبني إلى شيخ البلد سريعا . . اقتليه بهذا الخنجر قبل أن يقع في أيديهم ، فيبوح بكل شيء . »

واطلقت الجياد الفارحة بالعربة المذهبة خلال الطرقات ، ولكن
الطرقات كانت مزدحمة بالمشاعل ، والرجال المتوقدين . . ولم تستطع شمس ،
أن تقبض نظراتها منهم هذه المرة ، ولكنها ظلت ترتجف ، ورائحة العرق
الكريه تقتحم عليها العربة وروعت برأس شيخ البلد ، تخفق أمامها على
ريح ضويل . وكانت الجماهير الشائرة تطالب إذ ذاك بالرأس الثاني !



دخول الظالمين



عادوا صفراً مهزولين يقطر الرعب من وجوههم كأشباح الزمان
القديم . . أما الآخرون فقد استلقوا هناك ، على رمال الصحراء ، خرساً
مزمقين ينزف من أشلاتهم سر مأساة هذا الزمان الجديد
على أن أسرار المأساة أخذت تضطرب بين الألسنة والآذان في كل
مكان . وعند ما رواها الذين عادوا وشيكاً من « التل الكبير » ، اصطدمت
الأرض والسماء باللعنة على الخونة ، وسكب العجائز الدموع ، وفقر الصغار
أفواههم الغضة مذهولين

ولم يعد شيء على الإطلاق خافياً على أهل القاهرة . « فابراهيم » يروى
نفس قصة « عبد الله » ، و « فرج » يرتعش عند ما يحكى ، تماماً « كالأسطى
على » ، و « الأسطى على » ، كآلاف في المدن والقرى :

وقد عاد « الأسطى على » ، يلهث من الخنق والأعياء ، ويوضح بدعائه في
أهل الحارة خجلاً مؤلماً أن يخرجوا جميعاً إلى مداخل القاهرة ليردوا عنها
جيش الاحتلال الذي يزحف وفي طليعته الخيانة : كلبه الحارس الأمين .
ولم يكن « الأسطى على » ، قد غاب عن القاهرة أكثر من شهر واحد ،
أغلق فيه دكانه ، وحمل البندقية مع جيش عرابي تاركاً طفله وزوجته ،
وأمه التي ما زال يواسيها منذ أعوام طوال ، وما يرقاً للمجوز جمع منذ
مات زوجها وهو يحفر القناة

كانوا في القرية إذ ذاك . . وكان « على » ، صغيراً لا يستطيع أن يحمل
المعول ، ولعلهم من أجل هذا تركوه يعيش . وما أنقطع ما عاش بعد ذلك
ظل وهو يلعب في الطين — مع الأطفال والذباب — يشاهد جنوداً

يهبطون فجأة فيختفي الأطفال من الطرقات وترتجف القرية بأسرها من
العرب وهي تهمهم «الحكومة ! الحكومة» . ثم يتدحرج عشرات الرجال
على الطرقات الخالية : الروس منكسة ، والأيدى مشدودة إلى الجبال ،
والسياط تشوى الظهور ، وتدفعهم دفعاً إلى بعيد . . ليحفروا القناة

ولقد تعلت القرية أن الذين يذهبون إلى القناة لا يعودون ، ومع
ذلك فكما هدا نحبها بعض الشيء ، عادت السياط ترقع فوقها من جديد..
ويمضي موكب آخر إلى حيث لا يعود

ولن ينسى «على» أبدا كيف كان نساء القرية يلتقن على أبواب الدور
في الصباح فيتذاكرن الرجال ويبكين حتى يرتفع النهار

لقد عاش بينهن يبكي كل صباح ، حتى أخذته أمه ذات يوم إلى خارج
القرية . . إنه ذلك الطريق الطويل الضيق وسط الحقول . . لقد تعثر في
منخفضاته وبكى فحملته أمه ثم عادت تلقيه إلى جوارها على الأرض وهي
تسريح من عناء السير ، حتى انتهت بها الرحلة إلى ميدان فسيح يستلقي
تحت أقدام « قصر الباشا »

واستطاعت بعد نقاش طويل مع رجال غلاظ أن تدخل إلى القصر..
وكان الفلاحون يقولون عن سيدة هذا القصر إنها امرأة طيبة تعرف الله
واستقبلتهما السيدة في إشفاق ورحاب ، غير أنها سحبت يدها في
سرعة واشتمزاز من يد أمه التي شرعت تقبل اليد البضة في خشوع وضراعة
لقد قالت أمه لسيدة القصر إذ ذاك كلاماً طويلاً ما زال يذكر منه
كلمات « الجوع » ، و « الفضيحة » ، و « السر » . . وردت عليها السيدة
بكلام لم يفهمه هو ، فقد خيل إليه أنها تتحدث بلغة أخرى غير لغة أمه
والفلاحين !

وأقامت أمه في القصر . ولم تعد تلبس الجلباب الرني الأسود إذ

دفعوا إليها بثياب أخرى ملونة . وبعد حين سافرت سيدة القصر البدينة
البيضاء إلى القاهرة ومعهامخدم كثيرون بينهم أمه . . . وفي القاهرة رأى
السقف المذهب ، والجدران التي تزينها الصور ، والأرض تلعب من تحت
قدميه . . . وذاق خبز القمح

على أية حال ، لقد أصبح الآن شاباً يتقن صناعة الأحذية ، وقد اتخذ
له دكاناً ، وأخذ أمه من الخدمة في القصر . وقد أصبح أباً بدوكره لايسمح
لابنه بأن يلعب في الطين ، وفي عزمه ألا يمضى أبداً في الطريق الذي مضى
فيه أبوه

ولأنه ليجلس كل مساء على مقهى يجاور دكانه . . . وفي المقهى تعرف
بشبان يتحدثون دائماً عن صحيفة سرية تكتب كلاماً يبهره حقاً . . . لأنها
تحذر المواطنين المصريين من كبارهم الذين يشاركونهم غداً تركيا . . . فقد
كان هؤلاء إلى عهد قريب أتباعاً لتركيا ، وهم يتمتعون بكل ما في الطغيان
التركي من قسوة وجور . . . ولكنهم أذكاء ، فتركيا الإمبراطورية
الهرمة تتهاوى اليوم حجراً بعد حجر ، بينما تزحف إنجلترا بكل فتوتها
وغناها الواسع لتأخذ مكانة تركيا في مصر . . . ولئن كانت فرنسا تنافسها ،
فإن إنجلترا لا تبالى كثيراً بهذه المنافسة ، فهي أضخم قوة اقتصادية في العالم ،
وقد استطاعت أن تشتري حصة مصر من أسهم قناة السويس ، وقد منحت
مصر كثيراً من القروض بدعوى تحسين حالتها الاجتماعية أول الأمر ،
مؤكدّة أن القرض ليس إلا مساعدة اقتصادية ، ثم بدأت تزحف لتراقب
تشريعات مصر وسياستها ، بدعوى ضمان تسديد الدين ، وحماية
الدائنين . . . لا أكثر

وإن المصانع الانجليزية لتغرى السادة المصريين بأنها هي وحدها التي
تستطيع أن تشتري منهم كل ما يزرعون من قطن ، وتمنحهم بهذا أرباحاً

ضخمة لا تستطيع تركيا المنهارة أن تحققها لهم ! وأصحاب هذه المصانع يملكون جهاز دولة ، تملك بدورها قوة عسكرية لا نظير لها . . . وإن لها من الأسلحة أفتسكها وأحدثها ، وهذه القوة العسكرية تستطيع وحدها أن تحمي حقوق هؤلاء السادة في أرضهم الواسعة ، وتستطيع على أية حال أن تحطم كل المحاولات التي تهدف إلى الانتقاص من امتيازات السادة أو القضاء عايمها . . . إنها تتمسكنهم من القبض على الفلاحين بيد من حديد ، وتمسكنهم من القضاء على الأفكار الثورية التي تغلي في صدور المثقفين ، والتجار ، وأرباب الصنائع ، وكل الذين هزتهم مبادئ الثورة الفرنسية وصيحات « جمال الدين الأفغانى »

وكانت هذه الصحف السرية تحرض الجماهير على أن تعلن الثورة على هذه الفئة من المواطنين التي تتآمر مع كل غريب يدعم لها ثروتها . ويوسع لها الميادين التي تستغل فيها الآخرين

وكانت الحلقات الضيقة تطوق هذه الصحف السرية وحدها في أول الأمر ، ثم ما لبثت أن راحت تتسع شيئاً فشيئاً فتضم التجار ، وأصحاب الحرف ، وأصحاب العقارات الصغيرة ، والعلماء والمثقفين . . . وهي في كل يوم تزداد اتساعاً كالدوامة في الماء الهادى . لا شيء يوقفها على الإطلاق

. . .

وعند ما نشبت الثورة العراقية اتضح لعلى وآلاف غيره أن بعض الذين قاموا ينددون — مع الحركة الوطنية — بطغیان — الشراكسة ، وقفوا اليوم يدعون لانجلترا ! . . . وعبيد المصالح يستطيعون دائماً أن يبنذوا الصيد المرم حين يلوح لهم صيد آخر أكثر مالا وأعز نفراً ، وهكذا التقطت انجلترا بعض من كسبوا ثقة الناس ليرددوا على الناس رحمة المولى الجديد

وكان الطيبون من أهل مصر يطالبون جماهير الشعب على الدوام بأن تقف صفاً واحداً أمام عدوان الترك ، غير أن الثورة في اضطرابها قد أوضحت للناس أن هناك فئة لا بد أن تعزل الصفوف . فقد زحفت النشرات الرسمية تطلب من أهل مصر أن يتركوا الانجليز ليدخلوا آمينين ، فما قبلوا إلا لحماية السلطات الشرعية في البلاد من العصاة العرايين !

وكان العصاة العرايون إذ ذاك هم كل مصر ! ووجدت مصر نفسها وجها لوجه أمام أعدائها المحددين . لقد أعلنوا بالأمس مع مصر غضبهم على الشراكسة ، ولكنهم اليوم لا يستطيعون أن يقفوا مع الشعب أكثر مما وقفوا . فهم يستعينون بالجيش الاجنبي ليحي سلطانهم الخيف على الحقوق ! .

ومن أجل هذا أفسحوا الطريق أمام الجيش الانجليزى ، فباغت جيش الثورة في التل الكبير . وبدأ الجيش الانجليزى يتحرك بعد انتصاره الشائن . وتحركوا مع الجيش ليدخلوا القاهرة دخول الظافرين ! وكانت القاهرة تموج بالذين من « التل الكبير » وتعض أصابعها من الحسرة والندم . . . لكم أخطأت في تلك الأيام ! ! .

لماذا لم تمض بالكتاب إلى أجله عندما أصدر شيخ الإسلام بياناً يعلن فيه أن الحكومة الشرعية — منذ اعتمدت على الانجليز — لم تعد في حكم الله صاحبة حق شرعى على مصر ؟ .

ألم توقع مصر كلها على هذا البيان ؟ ألم يضع عليه الفلاحون بصماتهم وأختامهم وبصمات النساء والأطفال أيضاً ؟ .

لماذا سكنت ثورة الشعب بعد هذا عن أعداء الشعب ؟ .

إن الدماء الحرة على ثرى الاسكندرية ، وعلى رمال البحيرة والشرقية ، مستظل على الدوام تلعب الذين خانوا ، والغافلين على السواء .

ومع ذلك فقد بقى هناك ما يصنع .

وأخذت الأزقة الضيقة ترمى بمن يقى من أهلها إلى الروابي المشرفة على
مداخل المدينة الكبيرة . . لقد أريد للقاهرة أن تركع بعد حين أمام قدم
المحتل فوق أحوال الحياة ، غير أنها ترفض هذا المصير . . . ربما غلبت
على أمرها لبعض الوقت ، غير أنها لن تلتخط نفسها بالوحل أبداً .

. . .

وسرت نسمات سبتمبر مثقلة بالزفرات ثم بدأت تهتز بالأسلحة يلوح
بها الرجال والنساء . . . وكانوا يهمهمون في عجب : « كيف تطلب منا
الحكومة أن نرحب بالانجليز ؟ . . كيف تقول إن الانجليز هم أحبابنا . . »
ومن بعيد لاحت عربة مذهبة تلعب تحت الشمس . وقال رجل : « انظروا
لأنهم يقبلون ؟ » وتهايت السواعد والأبدان ، وتقدمت امرأة عجوز إلى قبة
الربوة ، ثم صاحت بصوتها الحاد : « لا . لا . لا يا أولاد . . لأنهم رجالنا ! »
ولكنها لم تكن تستطيع أن تسخر طويلا ، فقد أخذت تلطم وجهها بعد
ذلك وهي تكرر : « رجالنا . . رجالنا ! »

وكانت بعض الطرايش المصرية بالفعل تهتز على رؤوس رجال الحكومة
والحراس الذين يحيطون بالعربة المذهبة . . واحتدم الغيظ الكافر بالقلوب
المصرية المعذبة التي تنتظر على الروابي ، فتوالت القذائف وإذ ذاك أسرع
موكب الكبار ليشق طريقاً آخر ، وترك فصائل عديدة من جيش الاحتلال
تطلق أسلحتها الحديثة الفاتكة على الذين يشوهون جلال الاستقبال !

وعندما قرعت سنابل الخيل أرض القاهرة مطولة بدم شهداء التل الكبير
كانت طبول الحكومة تفرع احتفالاً بدخول الظافرين ! غير أن هذه الطبول
في رنينها العريض الأجوف لم تستطع أن تغمر عويل النساء ، وصرخات
النكير . وإذ انحنى السادة على يد القائد الانجائزى في ساحة بعض القصور

انحنى د على ، ليلتقط المطرقة الحديدية . . وحاول أن يسرع إلى الباب ، فسألته أمه : د إلى أين ؟ إلى الدكان ؟ د ولم يجب د على . . ونظر إلى والده الذى يلهو ، ثم سله المطرقة وترنح قليلا . ثم اعترف لأمه بأنه لا يحتمل جراحات صدره بعد . !

وهوى على ينزف منه الدم بينما كان والده يلوح بالمطرقة فى فضاء الزقاق المترب . أكانت إرادة الثورة تهز فى قبضات الصغير ، وأبوه يستلقى ليتخذ مكانه بين الشهداء ؟ !





لم يكن في الحقول شيء أخضر على الإطلاق . . غير أن الفلاحين أصبحوا ذات يوم ، فوجدوا أرضهم القديمة السوداء مزدهرة بأعواد الذرة الجديدة الصغيرة . . كانت ريانة غضة تضحك . . كالأطفال !
وكان الفلاحين لم يشاهدوا قبل اليوم هذه الحياة التي تنبت من الأعماق . .
فلاح لهم اخضرار الأرض التي اسودت بشقاء أيامهم والليالي كأنما هو شيء جديد عليهم حقاً . . .

وبعد صلاة العصر جلسوا على كوم من التراب أمام المسجد تحت الظلال يتحدثون عن الازمة التي تعانيها القرية ، فقد كان يجب أن تدبر القرية أمر خمسة قناطير من السم . . . ولكن القرية وهبت كل شيء . . وهبت كل ما فيها من دجاج وبيض وطعام ، . وحتى الشباب ولم يعد فيها من الرجال غير قرة من الرجال العجائز . . وإنهم ليعجبون اليوم لهذه الأرض الطيبة التي ما زالت ترحم شيخوختهم على الرغم من كل شيء . .

وقال فلاح عجوز . « عجيبة يا ناس ! ، لجأوبه فلاح آخر : « دى بركة الشيخ جوده . . بركة سيدنا الشيخ ! »

فنظر الشيخ جوده ، باسماء وقال بصوته الهادى الوقور : « ما بركة إلا بركة سيدنا عرابي . . وبركاته كثيرة بإذن الله ! »

فقال الجميع في نشاط مشرق : (أى والله !) أى والله بركة سيدنا عرابي . . الله ينصره على الظالمين .)

وتحسس (الشيخ جوده) لحيته البيضاء وهو يتأمل وجوه الفلاحين ضاحكا مطمئنا ثم قال :- (الضيق آخره الفرج ، والخضرة دليل الخير . ، فرجت بإذن الله ، وإن شاء الله ندبر السم !) .

ورد الجميع في لفظة : (إن شاء الله . . بحق جاء المصطفى) .
وأخذ الفلاحون يقبلون أنظارهم بين وجه (الشيخ جوده) وبين
الحقول الممتدة إلى نهاية الآفاق . أن المعركة لتدور هناك وراء هذا الآفاق
وأن لهم في المعركة لأخوة وأبناء وآمالاً عراضاً ستفتح لهم هذه المعركة
عالمًا جديدًا من الراحة . . لو أن (عرابي) ينتصر فلن تمر عليهم إذن
أيام جديدة من الشقاء . . لن يعرفوا الجوع بعد . . ولن يساقوا مرة
أخرى — لاهم ولا أبنائهم — تحت وهج الشمس وقرع السياط ، يضربون
بقزوسهم الصخور ، ومن حولهم يتساقط الموتى ، والعرق يختلط بالجلث
كتلك الأيام المشؤمة في حفر قتال السويس !

لو أن عرابي ينتصر . . .

لقد عاد (الشيخ جوده) أخيراً من ميدان القتال يحمل إلى القرية
أطيب الأنباء ولكن يطالبها بخمسة قناطير من السمن ! .
(الشيخ جوده) رجل مبارك تعرفه هذه القرية والقرى المجاورة
وهو يطوى حياته مثبت العين على الضريح الذي يقم فيه أجداده ليصبح
مثلهم — بعد عمر طويل — ولياً من أولياء الله .

وفي الأيام الحالية كان (الشيخ جوده) يشهد بنفسه كيف يضطرب
كل شيء في القرية التي هبط عليها ببغلة الفارسة ، فالفلاحون يتساقون على
يديهم يقبلونهما ، والسعيد من استطاع أن يصب له الماء عند الوضوء أو
يحمل الماء عنه ، ولا يكاد المساء يزحف على القرية التي ينزل بها (الشيخ)
حتى تمتلئ سماؤها بالدخان مثقلاً بعطر الشواء والأوز !

ولكن الأحداث الجسام تهز القاهرة والاسكندرية جميعاً . ويصب
الانجليز لجأة رصاص مدافعهم على الاسكندرية الآمنة ، ويقتلون الأطفال
والنساء والرجال بغير حساب ، وهدمون مساجد الله !
وتطرب حكومة مصر لهذا ، وتطالب الانجليز بمزيد من الأعمال

الوحشية لتحمل قسبها من شعب مصر الذى اصبح كله فى تقديرها مجموعة من العصاة ١ . وهكذا استعازت أظفار الأسد البريطانى وأخذت تنشبها فى علق البلد الأمين ١

ولم تكن فى مصر إذ ذاك سفارة أجنبية تستطيع أن تطلب من أحد رجال الدين حكما على الشبان الوطنيين بأنهم يعملون ضد تعاليم الإسلام . ولو طلبت لما وجدت ؛ فقد كان رجال الدين فى ذلك انزمان يخلصون لله وحده ، ومن هنا أعلن شيخ الإسلام ومفتى البلاد وكل علماء الدين أن حكومة مصر قد فسقت عن أمر الله ، وأنه لاطاعة لها فى معصية الخالق فالجهاد أمام هذه القوى الطاغية المؤتلفة من حكومة مصر والانجليز إنما هو جهاد فى سبيل الله .

ويترك الشيخ (جوده) أوراده التى ينتقل بها بين القرى ليتلوها على الناس فى الموالد ، ويترك بغلته الفارحة ، ويترك عشرات أمثاله كل شىء ويحتشدون جميعا للحزب المقدسة تحت لواء (عزابى) ضد أعداء الله والوطن . .

وينزع من كل قرية شبابها بفؤوسهم وحصيم ، إلى المعركة . وينعقد الدخان فى سماء القرى محملا بعطر الشواء والخبز ، ولكن الجنود فى المعركة .

ويتحول الريف المصرى المهزول إلى منبع خصب فياض يرسل الطعام والحديد والانسان ، إلى تلك الحرب المقدسة . . .

و (الشيخ جوده) وعشرات أمثاله يؤدون دورهم خلف الصفوف ينتقلون من الميدان إلى القرى ، وكلما هبط واحد منهم أرض قرية صاح فى طرقاتها : (يا أهل البلد ، الجيش بخير ، لعنة الله على الظالمين ، مطلوب منكم الخبز والطعام ١ ، ولكل بلد حصه مفروضة تؤديها فى حماس هائل . ولكن قريتنا هذه المسكينة لم تعد تستطيع أن تؤدى القناطير المطلوبة

من السمن . . . وكان الليل يتقدم . . . والشيخ جودة ينظر إلى وجوه
الفلاحين العجائز .. وخيم صمت طويل يحلله الأمل المبهم ويقطعه السعال :
كانت أجسادهم المعروقة السمراء التي أنهكها الكدح الطويل تختلج
بالأنفاس واللهثات وهم يسعلون وينظرون إلى الأرض في انتظار معجزة
ثم أخذوا يرتلون أغنية حزينة من دموع أيامهم . . . وفي آخر كل
مقطع من الأغنية دعاء حار متوسل إلى الله أن ينصر د عرابي ، ، وأن
لعنة الله على القوم الظالمين

وقاموا إلى الصلاة مرتين . . وبعد أن فرغوا من صلاة العشاء ومن
الدعاء لجيش مصر عادوا يجلسون أمام المسجد وقد أخذت نسبات سبتمبر
تصافح الوجوه . . والأنسام على أية حال تصافح الوجوه ، ولا تستطيع
أن تميز وجوهاً دون وجوه

وحمل إليهم الطعام . . لم يكن كما تعود الشيخ جودة ، . . بل كان
خبزاً مقدداً وقطعاً متحجرة من الجبن القديم والبصل الجاف . .
ورفعوا أيديهم عن الطعام فحمدوا الله ، وعاد الصمت والظلام يخيمان
على الجميع . .

وقال الشيخ جودة في رتته الوقور : « الآن علم الله أن بكم ضعفاً
خفف عنكم ، ولم يجبه أحد . .

ربما غفر الله لهم . . ولكن ماذا يستطيع الجيش أن يصنع . . أيمن
أن يستغنى عن حصنة القرية في هذه القناطر من السمن ؟ . .

. . .

وهم الشيخ جودة بالقيام ، وتحرك الجميع . . وهم ينظرون إلى ما وراء
الأفق البعيد . . حيث تدور المعركة . .

وفي السماء لاح ضوء خاطف أحمر . . ودعك الشيخ جودة ، عينيه
وقتها وهو يستعيد بالله . . وقبل أن يقول كلمة صاح فلاح عجوز : « الله

أكر... انفتحت طاقة السماء... وتساءل الشيخ في حجب : « أترون
معي ؟... ما هذا يا أولاد ! »

وارتفعت الأصوات .. ليلة القدر يا سيدنا الشيخ !! .. أدعوا ..
أدعوا الله يا ناس .. اللهم أنصر عرابي — اللهم قدرنا على إرسال السمن
للجيش — اللهم ... »

وقال الشيخ مستكراً : « قدر !! .. أين نحن من ليلة القدر ؟ »
وأخذ الجميع يتطلعون .. وساروا قليلا والأضواء تسطع ثم تسطع
وقد أصبحت طاقة من النور الأصفر تتخلله دوامات حمراء ، والأفق كله
يرقص بارتعاش اللهب ، ومن بعيد كان سكون الليل يحمل أصواتاً مختلطة
بأصداء أغنية ، وميز الفلاحون بعض مقاضع الأغنية ، كانت بالنصر
لعرابي وجيش الوطن

وكان اللهب يتزايد في الفضاء ، وعلى شعاعه المتوهج بدأت أشباح
متحركة تلوح ومن ورائها سحببات الدخان في السماء وسحببات الغبار
فوق الأرض

وتبين « الشيخ جودة » صوتاً يناديه : « يا سيدنا الشيخ ، فرجت
يا سيدنا ، سافر الليلة بالسمن !! »

وخرجت القرية برجالها العجائز ونسائها وأطفالها تستقبل هذا
الموكب ، وعرفت القرية من ثنايا الموكب أصوات « عبد السميع »
و « حسنين » و « عبد العليم » و « زكي الحاج » وبقية الرجال الذين يشتغلون
في تفتيش « الباشا » المجاور ، والذين تخلفوا وحدهم من بين شباب القرية
عن المعركة منذ أقام الباشا عليهم الحراس الشراكسة الغلاظ يسوقونهم بحد
السيف وقرع السياط إلى العمل في حقوله

ظلوا ينحنون على أرض الباشا ويلعنون العرق ودماء الجراحات وهم

يعانون ما عرفتة القرية جميعاً ، وهي تبحث للجيش عن خمسة قناطير من السمن .

ولقد تحدّثوا إلى (الباشا) أن يقرضهم نظير عملهم هذه القناطير الخمسة من السمن فروع الباشا من هذه (القحة) وأمر أن يجبسوا بلا طعام في حظيرة مهجورة للنواشي ، وأن يجردوا من ملابسهم ويقرعوا بالسياط ، وأقام عليهم عدداً من الشراكسة الغلاظ يعذبونهم الساعات الطوال واتفقوا في النهار فأقسم الفلاحون أن يكون هو آخر نهار على دولة الطفيان !

وعندما تعب الحراس من التنكيل بالفلاحين العشرين انقضى المساكين على جلادهم ، واستطاعوا آخر الأمر أن ينتزعوا السيوف من الحراس ، وقتلوا أبواب السجن . . خسروا في المعركة عشرة رجال وخرج العشرة الآخرون على أشلاء جلادهم . . فوجدوا عشرات الإبل والبغال محملة بالزاد . . كانت هي أيضاً ستمضى إلى المعركة تحت جناح الظلام . . ولكن إلى الجيش الإنجليزي

وكان إلى جوار هذه الإبل والبغال عصبة أخرى من فلاحي القرى المجاورة يساقون تحت سياط الحراس الشراكسة والمتصرين إلى حيث يحملون الزاد لأعداء الوطن . .

وحين لاح الفلاحون المحزونون والسيوف في أيديهم أمام اخوتهم المغلولين صاح الجميع : (يجيا العدل ، يجيا عرابي !)

وروع الحراس الشراكسة ، وانقضوا بسيوفهم ، ودارت معركة صغيرة أختفي بعدها الشراكسة ووقف الفلاحون أمام ردهة القصر يهتفون لعرابي ، وللعدل .

وبعد لحظات كانوا يجردون الحظائر عما فيها من ماشية وخيل وإبل ، ويجردون المخازن من الغلال والسمن ، وكان الباشا يركض ـ ومن حوله

بعض الاتباع — هارين من طريق خلفي . . . وقد أصبح القصر ممتلئاً
من ناراً

وعلى ضوء هذه النار سار الفلاحون إلى الشيخ جودة يقودون قافلة
تحمل من الزاد ما لم تكن تستطيع أن تقدمه عشرون قريةً مجتمعةً
وكانت النار التي تشتعل في أركان (قصر الظلمات) تملأ نفوس الفلاحين
الرحيبة الساذجة بشعاع هادئ. عجيب
وعائق (الشيخ جودة) كل الرجال ، وأخذ الفلاحون يتحسسون
ظهور الخيل وأجساد الإبل وهم ينظرون في عجب ذاهل إلى أكوام الزاد
كمعجزة متقدمة . .

ولم تم القرية في تلك الليلة . . فقد خرج النساء والأطفال يلشدون . .
وهزت الزغاريد والاهتافات أرجاء الليل . . . بينما كان الشيخ جودة ومن
ورائه القافلة والرجال يسرعون إلى المعركة تحت شعاع الفجر
ونظر الشيخ جودة إلى الخلف فوجد أطفال القرى ما زالوا يسرون
فقال لهم ضاحكاً :

— ارجعوا يا أولاد . . سيأتي دوركم فيما بعد . .



في الصيف صادوا الحماة



كان الفلاحون في الأجران يفرغون قمح السادة في الأكياس الكبيرة فلم يكن الفلاحون في ذلك الزمان يدخلون القمح في منازلهم ، لأنهم في الحق لا يصنعون به شيئاً ، فالخبز المصنوع من القمح لا يأكله إلا الانجليز والسادة ولقد يعيش الرجل ويموت دون أن يعرف ما هو عيش القمح هذا ، وكان السادة يدركون هذا جيداً ، ويعرفون أن الفلاحين تفسد معداتهم إذا تناولوا شيئاً غير الخبز المصنوع من الذرة ، وهم من أجل ذلك يحسبون دائماً حساب البهائم والفلاحين في القسدر الذي يجب أن يزرع من الذرة ، ومع هذا فظلما أقبل الخريف على قرى مصر وقد فرغت مخازن الفلاحين من الذرة وكان الفلاحون عندما يقبل الحصاد من كل عام يستقبلونه بلا بهجة ، فهم يعرفون أنه ليس حصادهم هم ، وأنهم يشعرون دائماً بأن هذا الحصاد ليس أكثر من دور آخر من أدوار السماء ، كالوقت في بعض الأساطير : سيرون من قبر إلى قبر وهم يرددون لعنة المولى الجديد !

وفي أول موسم الحصاد تجلج القرى أغنيات حزينة عن الذين ذهبوا إلى معركة الحرية ولم يعودوا ، وعن الحياة التي تسيل قطرة بعد قطرة وعن السكدح المهدر ، والافق الذي تسوده بقايا دخان البارود وحشرات ضائعة على الأمن المسلوب ، ولا يكاد الحصاد ينتهي حتى تسكت الأصوات ولا يبقى في كل القرية غير أعصاب متعبة ولهيب الشمس ، والحائم البيضاء تلتقط حبات القمح في أمن ولا تريد أن تبرح الأرض .

وقد جلس بين الحائم طفل في الثالثة حافيا بمزق الثوب لا يستطيع بعد أن يمسك فأساً ، كان على الرغم من الفقر نفسه جيلاً عذب المنظر

وكان يضحك ويرفرف يديه بين الحمامات ، ويمد إليها حبات القمح فتلتقطها منه ثم تثب على رأسه فيغمض عينيه وهو يستغرق في قهقهة طليقة رائحة ، إنه مهما يكن من أمره يتمتع بالطفولة ، هذا الشيء الذى يعطى حياتنا لون الورد II وكان الجنود الإنجليز الذين أقبلوا لصيد الحمام يرون هذا المنظر والضيق يملأهم ، إن الحمام لا يريد أن يطير عن هذا الطفل والشمس تفتح الوجوه والرؤوس . أتراهم يعودون إذن بلا صيد ؟

وفرغ صبرهم فالتقط واحد منهم قطعة من الطوب ورمى بها الحمام والطفل ، وفرغ الحمام ، فبكى الطفل ، والتفتت إحدى القرويات على بكاء الطفل وعلى صوت الطوبة التى حركت ذلك الصمت . وتلفتت من حولها تبحث عن أمه وعن أبيه فلم تجد أحداً ، ففى معركة الحياة المريعة التى يعيشها الفلاحون ، وفى نضالهم اللاهث مع لقمة العيش من أجل أطفالهم ينسون أحيانا هؤلاء الأطفال ، كانت أم الطفل فى مكان بعيد وراء حزم القش تنحنى على التراب لتصفى منه حبات القمح المتناثرة ، وكان أبوه يحكم ملء الكيس ، ولئن لم تنحنى المرأة على التراب لالتقاط حبات القمح ولئن لم يحكم الرجل ملء الأكياس ، فلا يدري ماذا يمكن أن يحل بهما من عقاب !

ونادت القروية : يا أم مصطفى . إلحقى ابنك . ، ولكن أم مصطفى لم تسمع ، ومضت القروية إلى الطفل . ورفعت عينها إلى الفضاء . وفى ساعات العمل ولا يكاد الفلاحون يجدون وقتا ليرفعوا عيونهم إلى الفضاء !

وعلى الطريق أبصرت حسنة من الجنود الإنجليز : السلاح فى اليد والعيون مثبتة على الطفل . وذهلت القروية . ولم تدر ماذا تصنع . ولم تستطع حتى أن تصرخ .

وألحت على رأسها صورة ثقيلة فادحة من فاجعة دد نشوای. د ولاحث
أمام عينها خيالات قريتها . أيمكن أن تسيل فيها الدماء ؟ . وتحسست جسدها
هى ، أيمكن أن يصنع بها الإنجليز كما صنعوا بأخواتها من نساء دد نشوای ؟ .
ولطئت من الفزع . فجلست على الأرض ورأسها بين يديها . كان القمح يملأ
الدنيا باللون الأصفر . وبدأ كل شيء أمامها أصفر . كل شيء حتى جلبابها
الأسود رأته شاحبا كالموت . وعاد الحمام يرفرف حول الطفل ويثب على رأسه
وعاد الطفل يمد يديه بالحبوب ويضحك ويضرب الهواء بذراعيه . ونظر
الجنود الخمسة إلى الحمام وإلى هذا الطفل . وبعد . أيمودون إذن بلاصيد .
أيفسد عليهم الطفل رحلتهم تحت الشمس ؟ ، ولجأة . انطلق صوت عيار
نارى واهتزت الأجران كلها بالدوى الرهيب ؟ وانتفضت القروية جاحظة
العنبر وأسرع انفلاحون ينظرون . وكانت (أم مصطفى) هى أول من
أقبل وهى صارخة بلهفة الأم : (مصطفى . ولد يا مصطفى !)
غير أن مصطفى لم يرد . ولم يكن فى استطاعته أن يرد إلى آخر الزمان .
وكان المكان الذى كان مصطفى يملأه بكل عذوبة الطفولة البيضاء . منذ لحظات ..
كان الدم يسيل ! ..

وصرخت أم مصطفى : (يا ولدى . قتلوك !) ثم استدارت إلى الذين
كانوا يحرون إليها من أقصى الأجران : (الإنجليز قتلوا ابنى . قتلوا ابنك
يا أبو مصطفى .) لم تكن دموعا فقد كانت مازنا فى تلك اللحظات الأولى
من صدمة الفاجعة قبل أن تفيض الدموع لتطفئ اشتعال الأعصاب ..
كان قلبها هو الذى يزار . وإنه لقلب أم !

ولم يقل (أبو مصطفى شيئا . وإنما أخذ يجرى . ويجرى . ومن ورائه
يجرى القرويون والقرويات ، لم يقفوا ليذرفوا دموعا على أشلاء الطفل الذى

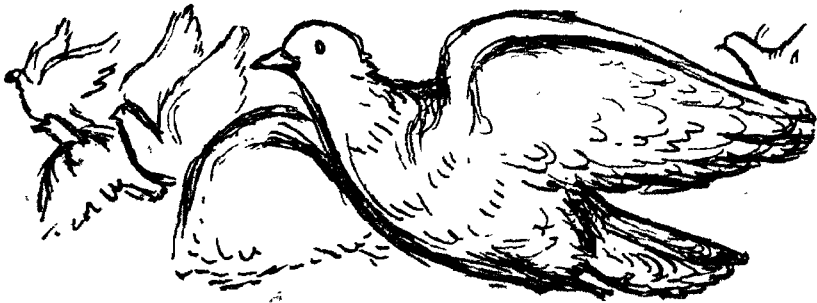
كان يملأ يومهم المتعب بالضحكات . والذي كان يتلقى مداعبتهم جميعا كلها
أنهمك التعب وتحمل ابتسامته إلى قلوبهم برد السلام .

كانوا يسمونه (مصطفى كامل) . . . وكان كل واحد منهم يرى فيه
الامل الذى لم يستطع أن يعيشه هو . . ولكنه قد مات . . قتله الجنود
وهم يصطادون الحمام . . . ووقف الجنود الانجليز على البعد يتضحكون
وقال أحدهم : (خمس حمامات . .) فقال آخر : (بل أربع والطفل)
فقال الثالث : (لا . . لا . . لقد كسبت الرهان . . . الطفل . . . وخمس
حمامات !) ثم أقبلوا مستضحكين ليروا من هو الذى كسب الرهان ! وكانوا
في تقدمهم العاثر قد بدأوا يشاهدون موكب الفلاحين يجرى إليهم وعلى
الوجوه أحرار مخيف . . . ولم يكن بين الفلاحين والفلاحات من يحمل
فأسا أو عصا أو بندقية . . ومع ذلك فقد أدرك الجنود أن هؤلاء الفلاحين
أقبلوا منتقمين لمصرع الطفل . . فأطلقوا الرصاص

ومع هذا ورغم الضحايا فالفلاحون يتقدمون ! . . وأخيرا التحموا
مع الجنود . . فأمسكوا بخناق واحد منهم وانزعوا منه بندقيته . . وسقط
هذا الجندى تحت الاقدام . . وبدأ الفلاحون يطلقون النار . . فسقط
جندى . . وغنموا بندقيته . . وفي لحظات كان الثلاثة الجنود الآخرون
قد سقطوا ! . .

واختلطت دماء الأحرار بدماء الانجليز . كانت كلها دماء بشرية ،
وكانت الأجساد الإنسانية تستلقى هامة مشوهة أمام نفس المصير . . .
وفي اليوم التالى لم يستطع واحد من السادة المصريين أن يطالب بإبادة
تلك القرية من مديرية الجيزة . ولم يستطع الانجليز أن يمارسوا فيها وحشية
« دنشواى » ، لأنهم خجلوا من صرخات الضمير المتحضر لحسب . .

بل لانهم أدركوا أن لاطائل من وراء ما يصنعون، فليتنازلوا هم، وليرجعوا
خطوة ١. . . وهكذا أصدرت القيادة البريطانية للجنود أمراً بتحريم عملهم
صيد الحمام، وتحريم عليهم الاقتراب من القرى، وبعد أن دفنت القرية
ضحاياها، ومصطفى، عادت تداعب الأطفال الآخرين، وترى في بريق
عيونهم نور الغد الجديد وعادت الحمامات تحلق فوق القرية، بيضاء كالأمل
نشيطة رفاقة كالمعركة، طيبة . . كالسلام . ١





تالى لهم متلفظا : (عودوا إلى الحقول .. عودوا الله يفتح عليكم) ..
فلم يتحرك أحد .. وعاد يقول لهم فى لهجة أكثر حزماً : إن سعداً لن
يعود من المنى ، وإن الذين سيقرون الحقول بعد اليوم لن يتناولوا أجراً
على الإطلاق) ، فظلوا جامدين : الفؤوس فى الأيدى ، وعلى العيون ظلال ،
ظلال كآبة تخفى الشرر .

وسأل الأزهرى شاب رفع رأسه لأول مرة فى وجه الباشا : (لماذا
لا يعود سعد من المنى ؟ سنعيده نحن يا ذن الله) فارتفع صوته بنبرات جليلة
تخالطها القسوة والخاوف : (إن سعداً يتلقى المعونة من البلاشفة الحمر
الذين يحاربون الدين ، والذين أطاحوا بالقيصر وأقاموا المشائق لأمرائهم
وأسيادهم .. لقد أرسلوا إليه يؤيدونه فرد عليهم شاكرأ هذا التأيد ..)
فاندفع من الزحام عامل يقول : (وماله ؟) .

وقال الأزهرى الشاب فى سخرية مفحمة : (وماله ؟) وأجاب ثلاثة
عمال آخرون يقيمون فى قريتهم منذ إغلاق المصانع التى يعملون فيها :
(وماله يا باشا ؟) وهمهم الفلاحون (يحيا سعد) واهتز عرق أزرق فى
جبين (الباشا) وارتعشت السلسلة الذهبية الغليظة على بطنه المتسكرشة ،
وضرخ بكل بدنه المترهل (أخرج يا كلب انت وهوه ، أجلدوهم ، ،
اخنقوهم) وكان السادة فى مصر إلى ذلك الزمان قد اكتبوا وحدثهم الحق
المشروع فى أن يقيموا المشائق للناس كيفما شاءوا : وما برح الباشا يصبح
(أخرجوا .. أخرجوا) ، حتى اهتزت ساحة القصر بهتاف واحد : (يحيا
العدل) وبادر إلى الباشا زائرہ الانجليزى ، وإذا أشرفت طلعتة المظمئة

على الوجوه المتشنجة السمراء ، جمحت العيون ودمدم الهتاف بسقوط (الانجليز) و (برادع الانجليز) .. ودمهم (الباشا) خجل مرير يضرمه حق هائل ، فوضع يده في جيبه ليشر مسدسه ، غير أن الزائر الانجليزى الكبير جذبه من يده في رفق وثقة ، وهو يهمس في أذنه بكلمات أئمها في الفضاء الواسع الذى يستلقى خارج القصر الضخم عن بيوت الفلاحين ؟ وتابعه الفلاحون إلى باب العربة ، وانطلقت العربة بالباشا وصديقه الانجليزى ، والفلاحون يهزون صميت الأفاق الحزين بهتافهم : (تحيا الحرية يحيا الوطن) كان الغلاء فى تلك الأيام يطحن حياتهم وحياتة إخوانهم فى المدن كما تطحن الأحجار حبات الذرة التى يحصلون عليها للطعام بهناء طويل ولم يكن للوطن والحرية عندهم غير معنى واحد : الحياة الإنسانية الكريمة التى لا ينهشها الغلاء ، ولا يهددها المرض ، ولا يروعها الجوع ، ولا يلوثها العار ، ولا تحجم عليها الظلمات ولا تهبط بالناس هذا المهبوط كله عن مستوى الكلاب المدللة فى بعض القصور وفى الطريق الذى تستلقى عليه الحقول الشاسعة النابضة بالحضرة ومآسى الذين صنعوا لها حضرتها ، قال الصديق الانجليزى : (يجب أن تتعلم كيف تضبط أعصابك فى مثل هذه المواقف .. وإلا استولى عبيدك على مقرك ومزارعك كما حدث لآخرين) فقال الباشا فى قلق منفجر (إنها مصيبة ، ، فالدهماء ما زالوا يتحكمون ، ، وعلى الرغم من كل القوانين فما زال نظام الحكم فى خطر ، ، وسعد لا يريد أن يفهم أنه يلعب بالنار قلنا له هذا ألف مرة ، ولكنه عنيد وهو يترك الفلاحين يحركونه ويدفعونه إلى حيث يتهاوى نظام الحكم على رؤوسنا جميعا ، ، إنه ليستملق الدهماء .. يتعلمهم ، وربما ضحى فى تملقه هذا حياتنا .. هذه مصيبة !) .

وكان نظام الحكم فى ذلك الزمان بأن تجثم جيوش الاحتلال على الأنفاس لتحمى لأصحاب المزارع الكبيرة الحكم الوحشى على المعذنين فى الحقول ولتحافظ على رؤوس الأموال الإنجليزية التى تتمدد خلال شركات عديدة

تسلب يوماً بعد يوم أقوات العمال والموظفين والطلاب وصغار التجار والمنتفعين وأصحاب المهن . لم يكن كل هؤلاء في الميزان يساؤون شيئاً بالقياس إلى الحفنة القليلة التي تزرع القطن وتصدره إلى المصانع الانجليزية وعلى الرغم من أن القوانين كانت تشرع دائماً لحماية هذه الطائفة ، وعلى الرغم من أن السجون قد امتلأت بالأحرار، والقبور قد ضاقت بالأموات والأحياء على السواء .. على الرغم من كل هذا فقد انقضت الجماهير العديدة في المصانع والمدارس والطرق والمكاتب معلنة — في عجزها عن مقاومة الغلاء لأنها لن تريق حبات العرق منذ اليوم لتتبلور في عقود الماس ، ولن تهدر دمهها بعد ليلجس الآخرون على أكياس الذهب وزلزلت الأرض تحت أقدام سادة الأرض ، فأخرجوا «سعداء» من أرض الوطن ، ومضوا يخادعون الناس عن حقيقة الصراع ، وطالبوا الناس لأن يلتزموا الهدوء فتصايحت الجماهير : « لحساب من هذا ؟؟ ولماذا نرضى بحياتنا هذه التي لا نملك فيها شيئاً غير الأغلال والهوان ؟ »

وعادوا يطالبون الجماهير بأن تقف معهم صفواً واحداً ، وسيفاوضونهم حكومة الانجليز .. فقهقت الجماهير ساخرة .. وما كان للذين استضعفوا في الأرض أن يأمنوا للذين ساموهم عذاب الحريق .. وتجاوبت من وراء البحار في الجزيرة البعيدة حيث يقيم الزعيم المنفي وصحبه ، نفس الصرخات التي أطلقتها الشوارع والمصانع الحقول : « كفى خداعاً .. أطلقوا الأحرار من السجون .. ألغوا القوانين التي تكبل نضال الشعب .. لن يقف الضحايا أبداً في صف واحد مع الذين يمتصون دماءهم .. إنكم والاستعمار عدو واحد ، ما دتم له الاداة الجهنمية المشثومة .. » ، وإذا أيقنوا أنهم لن يخدعوا الشعب في شيء ، أطلقوا جهاز الدولة بكل وسائله يضرب ويضرب بلا رحمة — وما كان جهاز الدولة من قبل قد توقف — وشرعت الصحف التي لا تعيش إلا في الوحل — كالود تنفث سمومها الشائنة في بهلوانية

بارعة ، ، وانطلق ضابط مصري يربط الثواب إلى ذيل حصانه ويعدو في شوارع القاهرة ، حتى لتتمزق الأجساد المصرية قطعة بعد قطعة وهو سعيد مرفوع الرأس وإن كان ليخفى رأسه أمام ضباط جيش الاحتلال ليتلقى منهم النياشين وأخذ الجنود المصريون يضربون إخوتهم في الدم والوطن والمأساة والأمل ومن وراء كل ذلك استمر جنود الامبراطورية يطلقون النار من الأسلحة الحديثة بلا حساب . . وإنهم هم أنفسهم لآباء وإخوة وأبناء أيضاً ، وقد خرجوا من الحرب العالمية وقلوبهم مثقلة بالجراح . . وإنهم ليحلمون أن يعودوا ذات يوم إلى أوطانهم فينفقوا ما بقى لهم من العمر سعداء آمنين بين الأمهات والآباء والزوجات والأطفال غير أن للاستعمار قضاء لا يرحم

عندما انتهت عربة الباشا إلى قصر المدير ، كان الرجل يتحدث مع رؤسائه في القاهرة ويتلقى منهم التهنية لأنه مسيطر على الحالة . . فقد أحرق الانجليز القرى النائرة جميعاً ، ولم يعد هناك من يمرؤ على رفع رأسه بالعصيان ! وصرخ الباشا في المدير :
(ماذا تقول . . إن العصاة في أرضي ليهتفون بالحرية !) وروع المدير من هذه المفاجأة . . .

وتحدث من فوره مع المفتش الإنجليزي واتفق الجميع على إرسال حملة من مائة جندي انجليزى لتؤدب القرية العاصية . والمدير — كالباشا نفسه — ينحدر من أب شارك في فتح أبواب مصر أمام الجيش الانجليزى لتأديب عصاة ذلك الزمان !

ومن يدري !؟ إن بعض الموتى ليحمل اللعنة من قبر إلى قبر . . ربما كان له اليوم ولداً أيضاً إن محملاً جديداً يجب أن يدخل مصر ليؤدب عصاة هذا الزمان ! !

وعلى أية حال فقد انحدرت الحملة بمدافعها الرشاشة إلى الطريق الزراعى .. والباشا ما زال يعجب لمصر كلها ماذا دهاها !؟ لقد كانت من قبل طيبة مع

سادتها .. كانت قرية مؤمنة !! ولقد هزمتها الدماء اليوم ، ومع ذلك فالمنشورات الثورية تندرج في كل مكان كالطوفان .. والمظاهرات تملأ الطرقات .. والعمال يحاولون الاستيلاء على المصانع .. والفلاحون يكدون للسادة .. ولجان الطلبة وجماعات المقاومة السرية تثب وتتحرك هنا وهناك كنبض القلب في المعركة !!

وقريته الآمنة ؟ لقد كانت حتى الأمس في قبضته ، ولكن .. كل شيء يجب أن يعود كما كان .. وستدحني الظهور مرة أخرى لتحمل له محفة أيامه المترعة بالعطور !

غير أن الظهور كانت قد انتصبت إلى الأبد على غير ما قدر الباشا الطيب السعيد فقد أجمعت القرية أن تقاوم إلى النهاية ، وألا تستسلم مادام فيها ساعد يستطيع أن يحمل السلاح .. وكانت القرية قد تغلبت كثيراً أن تحارب القرى الأخرى .. وعرفت أنهم سيقبلون بالنهار أو الليل ، يقتحمون الدور يعبثون بالنساء أمام الرجال . ويمتنعون وقار السنين في الشيوخ ، فأجمعت القرية على أن تخرج النساء والأطفال والشيوخ من الدور .. فتجمعوا كلهم في الأجران الواسعة خلف بيوت القرية . وبقي الرجال وحدهم في الدور في يد كل منهم فأس أو بندقية عجوز - وعسكرت الفرقة الانجليزية في قصر الباشا ..

ثم بدأ قائدھا يوزعھا إلى مجموعات صغيرة ، كل واحدة من أربعة جنود وأمرهم أن يهاجوا الدور ليسوقوا الرجال كلهم راكمين إلى قصر الباشا وأوصاهم مستضحكا ألا يشغلهم جمال القرويات عن أداء واجبهم الشريف ! وتوزعت المجموعات الصغيرة على الدور وفي صدر كل رجل حلم ثمل بمتاع سهل ..

وبدأت تلك البيوت السوداء كحياة أهلها تكتب تاريخاً جديداً للذين نسيم التاريخ .

كانت أبوابها الخشبية تمزق تحت ضغط الجنود .. ثم يندفع جندي إلى الدهيل المظلم ، ومن وراءه ثلاثة آخرون .. وشهد كل دهليز فأساً تهوى على رأس أول جندي يدخل أو بندقية هرمة تشتعل في صدره ، أو فلاحاً يلتقط في سرعة خارقة مدفع الجندي من على الأرض العفنة بالروث .. ومعركة بين ثلاثة جنود وفلاح !! وسقط من سقف القش والطين كثير من جنود الأمبراطورية ، وكثير من الفلاحين

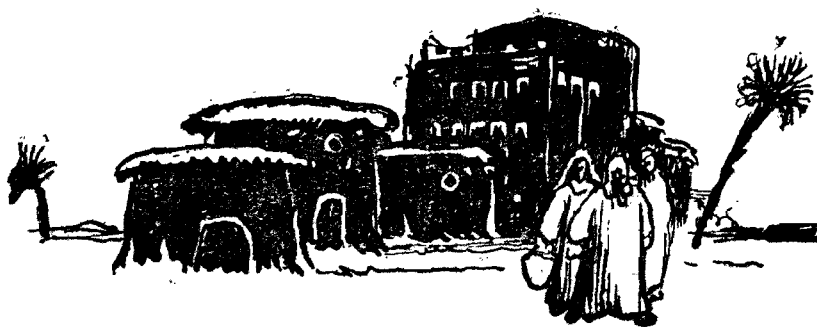
وتعثر في طرقات القرية بعض جنود يهربون إلى القصر .. وفي القصر تجمع نحو عشرين جندياً هم كل من بقي من حملة التأديب .. وحين جنون الباشا من الرعب .. وأخذ يصدر أوامره للجنود أن يخرفوا القرية على من فيها .. غير أن الفلاحين كانوا يزحفون إلى القصر ليحاصروا سيده والجنود بينما كان الأطفال والنساء في تلك الليلة الرائعة قد تجمعوا خلف القصر وأخذوا يقذفونه بالمشاعل .. واشتعلت النار في مخازن التبن والطلاقات تدوى خارج القصر ، والسما تهتز بهتاف الفلاحين ! وأحس كل من في القصر أنهم محاصرون ! .. وسيطرت على الجنود الانجليز حسرة مباغته .. لماذا هم اليوم هنا ؟؟ لحساب من إذن يقتلون الناس وتحاصرهم النيران ليهلكوا فيها كأعواد المشيم ؟؟

وعلى أضواء النار التي تلتهم كل شيء قفز الجنود من نافذة جانبية ومن ورائهم صاحب القصر ..

ثم مضى الجميع يضربون في الليل الذي يختلط من ورائهم بالفلاحين ! وعند ما أكلت النار كل شيء في القصر أخذ الفجر الجديد يلوح من بعيد ، ويسحب شعاعه الهاديء على الدخان ..

ولم يستطع أحد بعد أن يؤدب القرية العاصية .. فما هو إلا قليل حتى عاد وسعد ، وصحبه .. وترامى عليه السادة والأتباع لينقذهم نظام الحكم بأي ثمن ..

ولكن الثورة على الرغم من كل شيء ظلت في المصانع والحقول
والمدارس . . لتحقيق للجميع حياة إنسانية لا يرونها الجوع ، ولا يلوثها
العار ، ولا يجثم عليها الظلمات ، ولا تهبط عن حياة الكلاب المدللة في بعض
القصور . . ويوما بعد يوم أخذت الثورة تعرف من هم الأصدقاء ، ومن
هو لها عدو مبين . . أو غير مبين ؟





[عندما وضعوا على رأسك تاجاً من الشوك أخذ جبينك المنعكس
 يدي ، والشوك ينفذ من رأسك إلى النخاع ، وأتاني صوتك من بيد
 يمزق ريشته العذب صراخك المر ، ويسكت المأساة في الأغوار من كل
 نفس « وخفاة . . نبت لك من بين الأشواك براغم غضة . . وتساقت
 الأشواك من حولك على التراب وارتمى رأسك بزدها بنضارة الزهر
 الجديد » وأخذوا في ذهولهم يبحثون عن المعجزة التي صنعت كل هذا ،
 ولكنها لم تكن في جارجك . . كانت في الأعماق منك . . كانت
 تخاط بك أنت !]

اصططكت الأرض الصلدة بالأغذية الغليظة ، وشد الجنود أبدانهم
 وهم يرفعون أيديهم بالتحية ويلصقون أطراف الأصابع بجباههم البرونزية
 المليئة بالعرق والغضون . .
 — تمام يا أفندم .

تم استداروا وتركوا أيديهم تهبط إلى أجسادهم المتعبة وتتخذ حركاتها
 الرتيبة المسترخية . . كانوا جميعاً يحلون بالنوم العميق وكان « الشاويش
 عبد الله » هو أول من تحرك إلى باب القسم في طريق العودة إلى المنزل !!
 لن يمر الليلة بالمقهى ليلعب « الدومينو » فسيعود قبل مشرق الشمس
 إلى القسم حيث ينتظره عمل طويل مخيف .

إنه لا يعرف بالتحديد إن كان سيوضع في عربة تدرع القاهرة . أو
 سيوضع على ظهر جواد . . ولكنه يعرف فقط أنه في الغد سيصبح كاتناً
 آخر . . سيطلق النار ! ؟ . .

إن الشاويش « عبد الله » لم يطلق النار على أحد من قبل ولكنه في
 الغد سيطلق النار على أية جماعة تسير في الشوارع أو تتجمع أمام مدرسة
 أو مصنع . . هكذا صدرت الأوامر ، وقد سمعها ولم يكن أمامه خيار !!
 وعندما قرأها الضابط الصغير الذي لا تكاد سنة تغلو عن أولئك الذين
 يملأون الشوارع بالهتاف . . قرع « الشاويش عبد الله » حذاه على الأرض
 وأدى التحية العسكرية . بينما أخذت صورة ابنه تتخيل أمام عينيها إن
 ابنه الطالب بمدرسة التجارة المتوسطة ، هو أحد الذين اشتركوا في مظاهرات

اليوم احتفالاً بذكرى ١٣ نوفمبر وسيشارك في مظاهرات الغد ، وسيظل
كثيره من الطلاب يتظاهر على الرغم من كل شيء !!

وكم لقي الطلاب من الجنود طول النهار! وكم لقي الجنود من الطلاب .. ولقد
أوشك الشاويش عبد الله نفسه أن يصاب بقطعة من الحجر .. وعلى أية حال فقد
ابتلت ملابسه بالماء الذي كان يصوبه الطلاب إلى العساكر ليحملوهم على الابتعاد.
ومع ذلك فلم يفكر واحد من الجنود في أن يشهر بندقيته في وجه أي
إنسان .. لم يفكر واحد منهم في أن يقتل .. ولكنهم في الغد مطالبون بأن
يقتلوا .. يجب أولاً أن يقتلوا كل من قاد مظاهرة فاذا لم تتفرق المظاهرة
بعد مصرعه فيجب أن يطلقوا النار على المتظاهرين جميعاً بلا استثناء !
هذا هو واجبهم كما تقتضى التعليمات .. وهذا هو واجب « الشاويش
عبد الله » ، ولو كان ابنه بين المتظاهرين !

ولكن .. أيستطيع هو أن يفهم أن هذا واجبه كجندي ؟ .. !

لماذا يقتل ابنه أو أحد الذين يهتفون كما يهتف في الطرقات ؟

إنه هو نفسه منذ ثلاثين عاماً كان يهز قاسه في القرية ويهتف « يحيا
العدل » .. ويهتف بسقوط الانجليز وهؤلاء الذين يجب أن يموتوا غداً
لا يصنعون غير نفس الاشياء .. ، وعند ما ترك باب القسم كان يفكر في
شمس الصباح ، ، كم من القبور يفرغها الليلة ليلقف أجساد ضحايا الغد ؟
والتفت فجأة إلى قسم البوليس فشعر بكراهية مبالغتة لهذا البناء الداكن
الرهيب .. أيجب إذن أن يفقد هناك كثيراً من معانيه كإنسان ؟ لقد تعلم
كثيراً في هذا المكان .. تعلم أن يغتصب بطيخ الصيف ويرتال الشتاء من
الباعة المساكين ، ، لأنه لا يستطيع أن يحمل من مرتبه شيئاً إلى امرته ..
وتعلم أيضاً ولكنه لا يطيق .. فهو يشعر الساعة بخجل فضيع من نفسه ..
ولكن .. أيجب أيضاً أن يتعلم القتل ؟ أيجب أن يكون سفاحاً ؟ ، لماذا ؟
من أجل من ؟ ، ومضى في الطريق يفكر في الغد : سيلتقي العمال والطلبة
والموظفين غداً في مظاهرة صامتة ..

وتذكر بفتة أن له أخاً يشتغل في أحد مصانع النسيج . وبدأت صور وجوه عديدة تتخيل أمام عينيه موظفون من قريته يعملون في القاهرة ، الطلاب الذين يسكنون في حارته .. العمال الذين يلعب معهم « الدومينو » على المقهى ويستضحك معهم لبعض الوقت .. كل هؤلاء يجب أن يقتلهم غداً .. !! وارتعش عبد الله « أيجب أن يقتل كل من يجب ليصبح بطلاً ؟ » إن رضا الرؤساء وزيادة المرتب والبطولة وكل الأشياء المحببة للنفس تطالبه بأن يقتل ! وتراقصت أمامه الأضواء والظلال كالمرح .. فقفز إلى أول ترام وحشر نفسه في الزحام .. وكان الجميع يتحدثون عن مظاهرات اليوم .. وكان بعض الشبان يتحدثون بأصوات مبجوحة .. ولكنه لم يكذب يستقر بينهم حتى شعر بنظرات استمزاز .. وتناهد إلى سمعه أصوات ثرثرة مختلطة من غمزة الحريم .. كل واحدة تروى للأخريات قصة طالب صغير انقرد به الجنود وانهاوا عليه بالعصى الغليظة بلا رحمة .. كن جميعاً يتحدثون في وقت واحد ويلتهمين بتعليق واحد : « أليس هؤلاء الجنود أولاد ؟ أليست لهم قلوب ؟ » وأحس عبد الله أن كل من في الترام يبغضه ويعامله ككائن متوحش بشع .. حتى « الكساري » لم يشأ أن يحببه كما تعود منذ أعوام .. ! وغادر الترام مسرعاً ليكمل الطريق إلى بيته على قدميه وهو يفكر مشفقاً في التعليمات الجديدة . وعندما كان يهبط السلم إلى « البدروم » الذي يقيم في إحدى حجراته أحس بكأبة قاتمة ، ولهفة .. ! ودفع باب حجراته فوجد أطفاله نائمين ، وولده « علي » يقرأ من ورقة في يده على ضوء مصباح الغاز ، ولم يقل شيئاً وخلع ملابسه في هدوء وترك زوجته تفعل ملابس الصغار المهلهلة : ثم أخذ ينقل بصره بين أولاده جميعاً . وتخيل أنهم سيرون في مظاهرات الغد .. ولاحت له رقابهم تميل عن الأجساد والدم يسيل منها كالصنبور على أرض الشارع والخیل والعربات والأحذية تروح وتغدو على هذه الأبدان ..

وهو ابنه الأكبر رأسه معجباً بما يقرأ فروع الرجل ودمه فزع هائل لكانه

يرى رأسه تسقط على جسده هو أيضاً .. وصرخ في جزع: «على .. ولد يا علي !
ورفع «على» رأسه الثابت إلى أبيه دهشاً .. فغمرت الرجل طمأنينة
بما زجها الخجل ..

ودعك على رأسه ييده واستعاذ بالله : وعاد يحدث ولده — فسأله
عما يقرأ ..

كان على يقرأ منشوراً ! وأخذ يعيد على أبيه قراءة المنشور .. كان
المنشور يتحدث عن حق مصر في أن تعيش حرة تحت الشمس .. وعن
الجوع والمأساة والعار وكل ما صنعه الاستعمار في حياة المصريين .. وعن
الذين يضربون قوى الشعب لحساب السادة المستعمرين وكان الشاويش
يهز رأسه في راحة وهو يقول «أى نعم !» في الصباح الباكر كان الشاويش
«عبد الله» يذرع طرقات القاهرة مع جنود آخرين في عربة كبيرة مفتوحة
كان كل واحد منهم يحمل الخوذة والبندقية وزاداً من الرصاص ..

لم يكن الرجل في الحق متعب النفس أو الجسد .. كان قد نام جيداً ،
وكان على طول الطريق من بيته إلى القسم يداعب الناس كما تعود في الأيام
القديمة الخصبية ..

وكان الشاويش «عبد الله» يحمل في نفسه صراع الألمس .. وتقدم النهار
بالصباح قليلاً وبدأت طرقات القاهرة تمتلئ بالناس .. وأمام كل مفرق
يلتقي عنده طرقات أربع وقفت قوة بوليس برئاسة ضابط شاب .. وكان
«عبد الله» هو أحد أفراد هذه القوة .. وكان الضباط الكبار يطوفون في
عرباتهم الفاخرة على مراكز القوات .. ويؤكدون التعليمات .. وعند ما غادر
أحد الضباط الكبار القوة التي يعمل بها عبد الله قال للجنود «استعدوا؟»
كانت أصوات مظاهرة تقترب .. ولم تكد عربة الضباط الكبير تنفتح
وراءها الدخان حتى همس جندي عجوز ساخراً: «استعدوا للذبح يا أولاد
استعدوا للجزرة ! باسم الله .. الله أكبر !» وضحك الجنود .. فعاد الجندي
العجوز يقول وهو ينظر إلى العربة الفاخرة «طول عمره انجليزى !»

ونظر الضابط الصغير إلى الجنود.. لم يقل شيئاً.. وتقدمت المظاهرة.. كانت من الطلبة وقد أخذ ينضم اليهم كثيرون من أصحاب الجلابيب.. وكان يهود المظاهرة قى في الساعة عشرة ينطلق صوته في حرارة شبابه الجديد.. لم يكن صوته قد نخلص بعد من أنغام الطفولة.

وصاح الضابط يأمر الجنود أن يصبوا البنادق.. فتساءل الشاويش عبدالله ساخراً إن كانوا سيحاربون الانجليز، وإلا فلماذا يطلقون الرصاص! ودهش الضابط وأعاد الأمر.. ولكن جندياً واحداً لم يتحرك.. وأخرج الضابط مسدسه وبدأ يصب.. ولكنه وجد عشرات البنادق مصوبة إليه هو.. وفتح الضابط عينيه كالمنجّون.. وبدأت يده تهبط بالمسدس! وتوالت عليه الأسئلة: لماذا يقتل الجنود أولاد؟.. لماذا يقتلون إخوتهم؟.. ولم يستطع الضابط أن يقول شيئاً.. كانت الدهشة قد فتحت فمه على ذهول آخرس.. ولم يعد يستطيع أن يفكر حتى فيما ينتظره من جزاء وفي هذا الحى أو ذاك من أحياء القاهرة كان ضباط كثيرون قد رفضوا أن ينفذوا الأوامر ويكونوا سفاحين.. كانوا يتركون المظاهرات تسير بسلام وهم يرددون نفس الهتافات بينهم وبين أنفسهم، ومع ذلك فقد سقط في ذلك اليوم كثير من الشهداء.. غير أن البراعم كانت قد أخذت تنمو وتزدهر.. وبدأت الأشواك تتناثر على الأرض وعاد الرأس يرتفع من جديد شيئاً فشيئاً كتلك الأيام القديمة الجميلة.. والبراعم تأخذ مكانها في تاج الشوك.





« ثلاثة آلاف مصرى قتلهم جنودنا برصاصهم ؟ . لماذا ؟ لأن مصر
تريد الحرية ، إن هذا شيء فطبيع يحللنا بالعار إلى آخر الزمان ! »
ثم جلس النائب البريطانى . ووقف وكيل وزارة الخارجية وهو لا يكاد
يرفع رأسه . ولا يعرف أين ينحني وجهه أمام الضمير الإنسانى وأمام الحضارة
المعاصرة ، ولم يكن الرجل سفاها كالأخرين فقد قال فى ندم ووجل : « ثلاثة
آلاف قتيل ؟ . إن هذا حقاً شيء رهيب مخجل ! »
ثم هبط « المستر هارمسورث » من فوق المنصة . كاصعد إليها ، منعكس
الرأس

ولكن « المستر هارمسورث » لم يعرف بعد الآلاف من قصص العذاب
التي جعلت من القرن العشرين عصر الوحوش والأبطال والشهداء !
وأمام منزل العمدة ، جلس رجال القرية فى الفضاء الواسع يشربون
القهوة ، ويتطلعون إلى الأفق البعيد ، ويلةظرون قضاء ينزل من السماء وهم
يسحثون عن الكلمات التي تمسك الحديث ...

ومن حين إلى حين كانت الكلمات تضييع لجأة لتختلج على الشفاه زفرات
الندم يحللها الخجل ويضربها القلق المتحفز الحزين !
وكان (الشيخ عبد التواب) يداعب حبات مسبحته فى صمت . كان
على غير ما عرفته القرية — اخرس ، رهيباً يخيم على سكونه رنين خاشع .
كأنما يحمل قبراً بأسره فى أغوار نفسه .
والشيخ (عبد التواب) رجل فى الأربعين ، ذهب إلى الأزهر منذ
عشرين عاماً ، ومازال يذهب إليه كل عام ليعود إلى قريته . مع الصيف .

فاذا فضجت الخنطة في الحقول بدأت القرية تنتظر (الشيخ عبد التواب)
ليملأ أمسياتها بالسمر الحلو ، وليتناقش مع مقرى القرية مناقشات حادة
تضحك لها القرية ، ولتدفع اليه القرية آيات القرآن لشرحها ، وإعلانات
نزع الملكية ليفسرها . وليلقى خطبة الجمعة ، ويقرأ على الناس الصحف التي
تحمل أخبار المدينة . أو ليقرأ لهم فصولا من الكتب الصغرى على إشعاع
مصباح زيني باهت . أو على ضوء القمر في بعض الأحيان .

و (الشيخ عبد التواب) رجل رضى النفس . غير أنه لم يعد بعد رضيا !
وعلى أية حال فقد أقبل على القرية في ذلك العام على غير عادته ، قبل
أن ينضج القمح في الحقول ، وعندما هبط أرضه الحبيبة ، لم يكن أحد في
اتظاره ، ولم تهمس في أذنيه أصداؤه أناشيد الفلاحات والأطفال الصغار
الذين يغنون على الرغم من كل شيء . وإنما قابلته أصوات حزينة نادرة
كانت تملأ الألق في كل مساء ، وقالت له إحدى عجائز القرية كلاماً قليلاً ،
فشئ (الشيخ عبد التواب) بين تلال سوداء من حطام بيوت عرفها وشرب
فيها القهوة طويلاً ، وداعب فيها الأطفال والنساء والزجال . حتى إذا انتهى
إلى القبور التي تشرف على القرية من بعيد سالت دموعه في صمت ، وكأنا
هو ماء قلبه الذي كان يصعد إلى العين !

ثم عاد الشيخ عبد التواب من القبور . لم يكلم أحداً طوال الطريق .
ولم ينظر إلى (كتاب القرية) الذي احترق . ولم يستطع أن يلتفت إلى
المسجد الذي دن بمواعظه . ولكنه عندما تعثر بأبقاض المسجد أفلت أذنيه
المروع ... ثم مضى ... حتى انتهى إلى بيت العمدة الذي لم يبق منه غير فضاء
وحجرة متهدمة يطل منها خشب محترق كمروق الفحم !

وأمام بيت العمدة جلس أهل القرية في الفضاء الواسع ينتظرون قضاء
ينزل من السماء ، ويبحثون عن كلمات تقيم بينهم الحديث ...
وحاول العمدة أن يقول شيئاً . ولكن كل رجل كان يجد صوته غريباً

على أذنيه .. وأخيراً قال العمدة وكأنه يحزم كل شجاعته ليتكلم: (ياشيخ عبد التواب !)

ولم ينظر الشيخ عبد التواب إلى العمدة ولم ينظر العمدة إلى الشيخ عبد التواب ، ، ، . وفي الحق أن أحداً في القرية لم يكن يستطيع أن ينظر في وجه أخيه في تلك الأيام ...

وعاد العمدة ينظر إلى الفراخ . ثم همس ، كأنما يفر خجلاً يطارده :
(أختك شريفة وماتت شريفة ياشيخ عبد التواب ، وحريمك . كلهم أشرف الله يرحمهم ويحسن إليهم ويحسن إلى موتانا جميعاً !)

وقلب الرجل عينيه التائهتين في الرماد الذي بقي أمامه من دور القرية وتمتم : (شريفة ؟ أشرف يا حاضرة العمدة ؟) . وأخيراً وقعت عينه على عين العمدة . والتقطت النظرات الحائرة كثيراً من النظرات الجزعة . ومرت لحظة مفرغة صماء ، ثم انهمرت الدموع !

وقال العمدة وهو يتنهد ويقلب رأسه ويديه : (العوض على الله .)
كان العمدة يعلم جيداً كيف ماتت أخت الشيخ عبد التواب ، وكيف مات كثير من نساء القرية ، وأن له لامرأة ما زالت تعيش ، وليتها ماتت كابنتها ، وابنها . فأنها لتشد شعرها طول الليل ، وتصرخ ، وتدق صدرها بالأحجار التي بقيت من حطام البيوت .

و (الشيخ عبد التواب) لا يكاد يرى أمامه أحداً من شباب القرية الصاخبين الذين تعودوا أن يتلقوا بالرضا الضاحك كلماته اللاذعة المؤنبه وصفعاته في بعض الأحيان . ولا أحد على الإطلاق من شيوخ القرية الذين كانوا يملأونها بالحكمة الباسمة . لا شيء غير بقايا ذبول ودموع وحكام .

لقد عرف كيف تنساقط حياة الناس في القاهرة حياة بعد حياة كأوراق شجرة يهزها مارد مجنون غير أنها كانت كالأشجار المقدسة تعمق في الأرض وترفع إلى السماء : الأوراق تسقط ، فتورق الشجرة من جديد ...

لقد رأى فظائع هائلة في القاهرة ، ولكن هذا الذى حدث في قريته
لم يسمع به الشيخ من قبل ، ولم يقرأ مثله في كل كتبه الصفراء .
وكانت القرية تقوم بدورها المقسوم في الثورة الكبرى . . . وجأة وفي
ظلمات الليل انتقض مائتان من الجنود الحمر مدججين بالسلاح . والذئاب
الجماعة تنقض في الظلمات .

واقترحت القوة بيت العمدة ، وأعلن رئيسها على لسان ترجمان من الذين
رعتهم أرض مصر وأطعمتهم من جوع . أعلن أنه أقبل ليفتش عن السلاح . . .
فقط ليفتش عن السلاح !

ووزع الجنود على بيت العمدة وعلى بيوت القرية . غير أن الجنود
داهموا خدور النساء يفتشون هناك عن السلاح . وفي الخدور اغتصبوا
ما استطاعوا من حلل النساء . وانتكوا ما استطاعوا من أعراض النساء .
ولم يجدوا سلاحا في القرية كلها . ولكنهم وجدوا رجالا غضا با يذودونهم
عن النساء بالدم في بعض الأحيان !

فأصدر رئيس القوة أمره إلى أهل القرية أن يتركوا الدور جميعا إلى
الحلاء ليمروا أمامه فرداً فرداً ، وليشرف بنفسه على إجراءات تفتيش
كل منهم .

وتحت قرع السياط ، وطعنات « السنكي » ، ودوى الرصاص امتدت
إلى خارج القرية تحيوط بشرية مترنحة ذاهلة من الرجال والنساء والأطفال
كان الجنود يفتشون كل رجل ، ويصفعون هذا الفتى بلا مناسبة ثم يركلون
ذلك الشيخ فينهاوى على الأرض وهم يتضاحكون !

أما النساء ! . آية ذكريات . . . إن المسبحة لتسقط من يد الشيخ
عبد التواب وهو جالس في صمته فيذكر هذا الذى حدث بالقرية منذ أسابيع
كان الجنود يمزقون أثواب النساء بحد « السنكي » . . . وبين طيات
لأجساد المصرية العارية كانوا يفتشون عن السلاح ، وهم يعبثون بكل

كنوز الجسد الاثنى ! .. ولقد تروق إحداهن لجندى فيقتصبها بين رنين الضحكات والتصفيق .. وتحت أنظار الآباء والأزواج والأخوة وال أبناء ... !
فاذا امتنعت إحداهن قتل .. وإذا استغاثت قتل .. وإذا انقض رجل للذود عنها فما أسرع ما كان الرصاص يلقيه على الأرض ! ...
وفي تلك الليلة قتل أطفال كثيرون لمجرد أنهم تشبثوا بأمهاتهم ..
وما أكثر ما قتل من نساء ورجال وعذارى صغيرات !

وعندما تعب الجنود من الاغتصاب والضحك والدماء ، طلب منهم رئيس القوة أن ينصرفوا فقال أحدهم : « لماذا لا نشاهد منظر اللهب في هذا الليل الجليل ! » ، وطرب القائد للفكرة .. فأمر جنوده باضرام النار في القرية .. ثم وقفوا من بعيد يتلوهون بمنظر انعكاس اللهب على الليل الذي كان يوغل في صدور الناس بالصراخ والروع والتكدير !
وعندما أرسل الفجر أشعته الدامية ، انسحب الجنود .. وتركوا وراءهم بقايا رماد يختلط فيه الدم بالجرات !

وانحنى « الشيخ عبد التواب » يلتقط مسبحة من الأرض .. ومسحها وهو يقبل في يده بقايا التراب ! إنه يرى الساعة تلك الوجوه النضرة التي كانت تسقط من حوله في شوارع القاهرة تحت وابل الرصاص ليختلط منها الدم بالأرض التي مشت عليها طويلا ، ولكنه ينظر إلى قريته فيرى دوامة خيفة من اللهب والدخان يقف عليها جنود حمر غلاظ يزومون فيها كل من أحبه ذات يوم .. ليبقى هو من بعدهم وحيدا كأنما فقد الحياة نفسها !
...

وتقلت الجلسة الصامتة على نفس العمدة فنادى « يا شيخ حسن ! »
كأنما كان يريد أن يفرى مقرىء القرية الكفيف بالشيخ عبد التواب ليذخلا في مناقشة ضاحكة كاتعودت القرية أن تشهد في الأيام الجميلة الذاهبة ولكن أحدا لم يجب ، وأجش صوت من أقصى المكان في عتاب يحمل

الغراء : « يا حضرة العمدة ! » ، وتتم العمدة : « العوض على الله ؟ ..
يا أهل الله ، الظالم له يوم ! الله ينتقم منه ! »

وانقهر الشيخ عبد التواب صائحاً بكل أحزانه التي تختلط فيها الثورة
بالمجود : « الله ينتقم ؟ كيف يا حضرة العمدة ؟ اقل لي .. يا شيخ
اسكت ؟ .. إنما من أنفسمك سلط عليكم .. الله ينتقم منا .. منا ! »

كان الشيخ « عبد التواب » في انقجاره يتذكر ما شاهده هوق القاهرة ،
ولكن أهل القرية المحزونين لم يفهموا ، ومدوا رؤسهم في حيرة متسائلة ،
وففرت الأفواه ؟ .

وكما تعود الشيخ عبد التواب أن يشرح للقرية ، أخذ يتحدث عن مظاهرة
القاهرة وكيف يسخر الانجليز الجندي المصري لقتل أخاه الذي يطالب
بحريته ؟ كيف يقدق الانجليز على ضابط مصري يشد الثوار إلى ذيل حصانه
ويجبري بالحصان والضحية وراءه تخبط على الأرض وتضطدم بسنابك
الحليل ، حتى تموت ! .. وهو سعيد بهذا كأساعد ما يكون بكل عمل شريف
وهنا وقف الفلاحون صارخين « أه ، أه ! » ؟ .

وسكت « الشيخ عبد التواب » .

قد فقد كل شيء ، ولم تعد الحياة شيئاً يستحق أن يحرص عليه .
من قبل كان « الشيخ عبد التواب » يضرب من أجل حياة أفضل أما
اليوم فالحياة عنده كالموت والموت كالحياة ، ولكنه قبل أن يموت يجب
أن يثار من الذين جعلوه يفقد طعم الحياة ، أنه يريد أن تذكر هذه القرية
أن الشيخ عبد التواب قد ثار لها

ولكن معركته ليست هنا في القرية ، .. !

وقام الشيخ عبد التواب فجأة وهو يقول : « أنا راجع ! » ، وسأله
الفلاحون أترأه يعود إلى الضابط الذي ربط الثوار في ذيل حصانه ؟ ،
فقال عابساً : « نعم ! » ، وعبثاً حاولوا أن يمكوه في القرية ، فقد مضى

وأوصاهم أن يضربوا من جديد ولو أحرقت القرية إلى آخر شيء حتى !
ويصل الشيخ عبد التواب مسرعا ، ومن حوله الرجال يصيحون :
« يحيا العدل ! »

ومكثنا انطلقت الأصوات مجتمعة لأول مرة منذ الحادث كأنها وجدت
نفسها من جديد

وعندما كان الشيخ عبد التواب يقبل آخر رجل من مودعيه ، سأله
الرجل : « متى ترجع بالسلامة ؟ » ولم يجب الشيخ عبد التواب . وانحدرت
من عينه دمعة حجت عنه مناظر قريته الحبيبة ؟

...

ولم يعد الشيخ عبد التواب « إلى القرية » ، ولم يذق السلامة منذ مضى
إلى القاهرة !

وأن القاهرة لتذكر أنه صنع أشياء عجيبة في الثورة ، وانقذ كثيرا
من المصريين من أيدي الانجليز ونار الكثير من الأرواح
أما القرية فلن تنسى أبدا ، أنها — رغم مضى ثلاثين عاما — ما زالت
تذكر حين تبكى شهداءها الكثيرين ، ما زالت تذكر أن الشيخ عبد التواب
قتل تحت سنانك خيل ضابط مصري — نعم ، مصري مع الأسف —
وأنه ظل يهتف والحصان يحره على الأرض ودمه ينزف : « تحيا مصر ! »



للمؤلف :

من أب مصرى إلى الرئيس ترومان (شعر)

الطبعة الرابعة

تطلب من مجلة الغد

١٨ شارع ضريح سعد بالمنيرة

الطبعة اللبنانية

تطلب من بيروت — مجلة الثقافة الوطنية

تحت الطبع

محمد رسول الحرية



الفن في سبيل الحياة

تصدرها

طلبة الكتاب والفنانين

مجلة شهرية ثقافية

١٨ شارع ضريح سعد بالمنيرة

يصدر

في أول يونية سنة ١٩٥٣ كتابا جديدا
من الأدب الروسى الخالد
كتابا كتبه فرد ليقرأه شعب
« مخلوقات كانت رجالا »

للكاتب الروسى الخالد

مكسيم جوركى

ترجمة

سعد توفيق

ترجمة حرفية عن الروسية

Bibliotheca Alexandrina



0633084

المن
١٠
٨٦
٧٤

